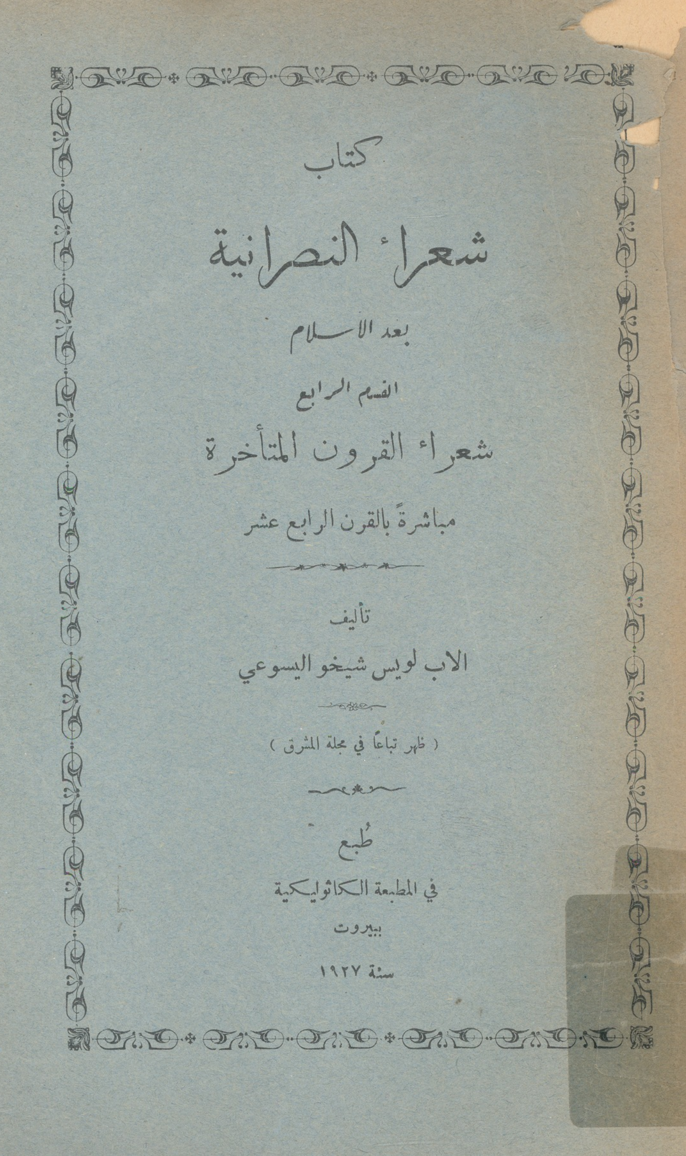


كتاب

شعراء النصرانية

بعد الاسلام

القسم الرابع

شعراء القرون المتأخرة

مباشرةً بالقرن الرابع عشر

تأليف

الاب لويس شيخو اليسوعي

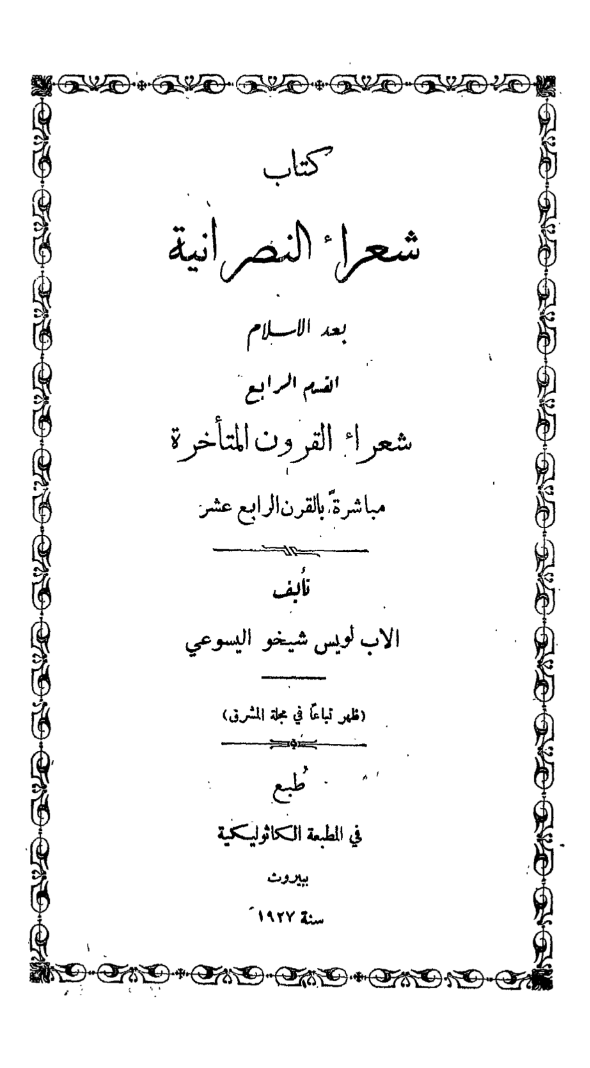
(ظهر تباعاً في مجلة المشرق)

طُبع

في المطبعة الكاثوليكية

بيروت

سنة ١٩٢٧



كتاب

شعراء النصرانية

بعد الاسلام

القسم الرابع

شعراء القرون المتأخرة

مباشرةً بالقرن الرابع عشر

تأليف

الاب لويس شيخو اليسوعي

(ظهر تباعاً في مجلة المشرق)

طُبع

في المطبعة الكاثوليكية

بيروت

سنة ١٩٢٧

شعراء النصرانية

في القرون المتأخرة

القسم الرابع

مقدمة

هو القسم الاخير من كتابنا في شعراء النصرانيَّة بعد الاسلام ويبتدئ في القرن الرابع عشر بعد الدولة العبَّاسية وانتهاء الحروب الصليبية. ويُختم بشعراء القرن التاسع عشر دون الاتساع في من شاع ذكرهم وانتشرت آثارهم ودواوينهم.

وممَّا يجب التنبيه عليه انَّ آثار شعراء النصرانيَّة في اواخر القرون الوسطى الى القرن السابع عشر قليلة جدًّا وذلك لحمول اصاب اللغة العربية عموماً في بلاد الشرق بتملُّك دول غير عربية كدولتي المماليك المصريين البحريَّة والبرجيَّة وكدولة الاتراك. فقلَّما تجد من التآليف النفيسة المشبعة الممتّعة كالتي سبقت ذلك العهد. وزد على ذلك ما وقع في تلك الاجيال من الحروب الطاحنة منها اجنبية ومنها اهليَّة أُصيبت بها الآداب بضربة اليمة

وما يقال اجمالاً عن كل الشعوب الشرقيَّة يصحُّ خصوصاً في النصارى الذين زادت احوالهم سوءا وضنكاً فكانوا اشبه بعبيد لا يتنسَّمون رائحة الحريَّة فيقصرون همَّتهم بامر المعاش ولا يكادون يتفرَّغون للمعارف والدروس العقليَّة. وغاية ما كانوا يدركونهُ بعض الالمام بمبادئ اللغة والكتابة. واذا وقفتَ على شيءٍ من آثارهم تجدها ركيكةً ضعيفة التركيب والانشاء يغلب عليها الالفاظ العامية الحوشيَّة كالزجليَّات

والاناشيد العامية وبقي ذلك الى اواسط القرن السابع عشر حيث ظهرت تلك النهضة الادبية التي تولى امرها بعض ادباء النصارى الحلبيين بمساعدة المرسلين من الرهبان والمتخرّجين في المدرسة المارونية في رومية العظمى. وقد افادت هذه النهضة بلاد سوريّة عموماً فاستفاد منها المسلمون والنصارى معاً وهي اصل النهضة الجديدة التي اتّسع نطاقها في القرن التاسع عشر وبلغت اليوم سائر انحاء الشرق

هذا ما لزم شرحهُ في اوّل هذا القسم الرابع من مجموعنا في شعراء النصرانية بعد الاسلام. فنبتدئ وعلى الله التكلان

١ سليمان الغزّي

بكل سرور نفتتح هذا القسم بذكر شاعر لم يأتِ لهُ ذكر في كتب المستشرقين وفي التاريخ الوطني القديم. نريد بهِ سليمان الغزّي مؤلف ديوان كبير يُعدّ افضل مثالٍ للشعر النصراني الديني الذي لم يسبقهُ الى معانيهِ آخر

﴿تعريف الرجل﴾ لقد افرغنا الوسع للوقوف على اخبار هذا الشاعر سواء كان في التواريخ الشرقية والغربية النصرانيّة والاسلامية ام في الآثار الكنسيّة. فلم نجد لهُ ذكرًا حتى لم ينوّه بذكره احد من ابناء طائفتهِ الملكية ممّن بحثوا في اخبارها ومشاهير رجالها كالبطريرك مكاريوس الحلبي صاحب التآليف الواسعة وكمؤرخي البطريركية الانطاكية القدماء والمحدثين

وغاية ما يمكن الحصول عليهِ في تعريفهِ انّما يُستفاد من مراجعة ديوانهِ خصوصاً وكان سبقنا الى ذلك جناب الكاتب الاديب والمؤرخ المحقق عيسى افندي اسكندر المعلوف في مقالةٍ حسنة نشرها سنة ١٩١٠ في مجلة النعمة (١ : ٦١٩و٦٥٨). وقد راجعنا نحن أيضاً النسخ العديدة التي وقفنا عليها من ديوانهِ وتتبّعنا قصائدها لنقتبس من خلالها بعض التعليقات المفيدة للكشف عن اخبار ناظمها. فدونك ما حصلنا عليه

﴿اسمهُ واصلهُ﴾ اسمهُ مدوّن في صدر كلّ نسخ ديوانه على هذه الصورة «الشيخ الفاضل العالم الكامل الحكيم سليمان ابن حسن الغزّي رضي الله عنهُ» وفي نسخة

« قدّس الله روحهُ ونوّر ضريحهُ » . وجاء اسمهُ في نسخة ديوانهُ المصون في مكتبة القبر المقدّس للروم الاورثذكس في القدس الشريف(١ « الشيخ الجليل العالم الفضيل الرئيس الحكيم الشيخ العَلَم سليمان بن حسن الغزّي عليه الرحمة والرضوان اعاد علينا فضائلهُ وعلومهُ ويُفهمنا قصائدهُ ومنظومهُ »

فيحصل من هذه الاقوال ان المترجَم كان اسمهُ سليمان وانّ اباهُ كان يُسمى حسناً وكلا الاسمين يشترك فيهم قديماً النصارى والمسلمون . وانّ اصلهُ كان من مدينة غزّة التابعة لولاية فلسطين على ساحل بحر الشام بين يافا والعريش

﴿زمانهُ﴾ لا يُستفاد شيء من ديوان سليمان الغزّي لتعريف زمانه اللهمّ الّا ذكرُ بعض اديرةٍ زارها سبقت العهد التركي كدير صموئيل ودير البقاع ممّا طُمست آثارها قبل القرن السادس عشر . ولنا على زمانهِ دليل آخر في نسخ ديوانه . فانّ نسختهُ المصونة في القبر المقدّس تاريخها سنة ١٦٩٠ . واقدم منها نسخةٌ في حلب ذكرها عيسى افندي المعلوف (النعمة ١ : ٦٢٥) تاريخها سنة ١٥٥٧ . ولعلّ احدى نسخ مكتبتنا الشرقيّة اقدم عهدًا كما يلوح من كتابتها وورقها فالمرجّح انّها كُتبت حوالي القرن الخامس عشر

فليس اذن بمستبعد ان يكون الشاعر عاش في القرن الرابع عشر كما ذهب اليهِ صديقنا عيسى افندي (ص ٦٢١)

﴿دينهُ واخبارهُ﴾ نصرانية سليمان الغزّي ثابتة واضحة وضوح الشمس في كل قصيدةٍ من قصائده وكلها منظومات دينيّة نصرانية . وانمّا في نصرانيتهِ مشكلٌ أَوُلد في النصرانيّة ام ارتدّ اليها عن دين آخر . وبعد مراجعة ديوانهِ والامعان في قصائده تحقّقنا انهُ لم يولد نصرانيًا وانّهُ كان مسلم النحلة فتنصّر بعد ردحٍ من الدهر فتراهُ يشير كثيرًا الى حياتهِ السابقة ويذرف الدموع السخينة على ضلالهِ وآثامهِ . كقولهِ في مطلع قصيدةٍ (من الطويل) :

خليليّ انّ الخير للدهر نافعي ولاشكّ فعلُ الشرّ بالموت قاطعي

١) اطلب الصفحة ٥٨ من برنامجها اليوناني العربي عدد ٥٤

ولا تَلْحياني إنْ بكيتُ خطيئتي ونوحا عليَّ تارةً وابكيا معي
خليليَّ ما بَعْد الخطايا رَزيَّةٌ ولا بدعةٌ بل فوقَ كلّ البدائعِ
دَعا مقلتي تذري الدموع فربَّما نفى زفَراتِ القلبِ فيضُ المدامعِ

ومثلهُ قولهُ (من البسيط) :

انا الذي كنتُ أَوْلى ان اموت كما اخطيتُ دون المسيحِ ما بهِ عَيْبُ
يا ربّ أَثْبت لنا نعماكَ فيهِ فما لنا سواهُ عظيم القدر مطلوبُ
واغفر لمن نظم الابياتَ زلّتهُ فإثمهُ بإزاء عينَيْهِ منصوبُ

وربَّما اشار الى ما عرفهُ من مزاعم المسلمين كقولهِ في يوم البعث (من البسيط) :

لا تطمعوا انَّ يوم البَعْث يُطعمكم من الفواكهِ اثمارًا وأَعنابا
ولا يزوّجكمُ حُورًا فيعجبكم جمالهنَّ لدى الفردوس إعجابا
انَّ المعادَ لدارٌ ما ترونَ بها من المطاعم والملبوس جلبابا
فإحذروا الآن لا يطغيكمُ احدٌ وبئس مَن خالف الانجيل كذَّابا
يأتيكمُ القومُ في شَكْلِ الخراف ترا هم عند كشف ستار الوجهِ أَذيابا

﴿مذهبهُ﴾ ولكن تُرى ايَّ مذهبٍ تمذهَبَ بهِ عند ارتدادهِ . من المعلوم انَّ في القرن الرابع عشر كان نصارى الشرق ثلثَ فرقٍ الروم واليعاقبة والنساطرة . وانما بمولد سليمان بن حسن في غزَّة يتعيَّن ايضاً المذهب الذي تبعهُ اعني بهِ الروم ولم يكن في غزَّة في عهده غيرهم من النصارى ثبتوا هناك الى زمن الاتراك ولنا سلسلة من اساقفتهم ناقصة (راجع مقالةً حسنة عن آثار النصرانيَّة في غزَّة وضواحيها في المشرق ١ [١٨٩٨]: ٢١١ــ٢١٦) . ثمَّ في شعر سليمان الغزّيّ ما يصرّح بمذهبهِ في قصيدتهِ النونيَّة التي اولها (من البسيط) :

مـا كلّ معتمدٍ بالمـاء نَصْراني غير اعتمادِ حياة العـالَم الثـاني

فانهُ يُعدّد بدَع النصرانيَّة ويكفّرها كآريوس ومكدونيوس ونسطور ويعقوب البرادعي وغيرهم الى ان يقول :

هذي مذاهبُ اقوامٍ لكفرهمِ ضلُّوا الهدى عن طريقٍ شِبْهَ عميانِ

فالفضل للأرثُذكسيّين إنّهمُ تمَذْهبوا مذهباً في الله حقّاني

وليس في روميَّتهِ واورثذكسيَّتهِ ما يُشتمُّ منهُ نفي تعاليم الكنيسة الكاثوليكية وكثيرًا ما يذكر في شعرهِ القديس بطرس هامة الرسل ورئاستهُ كما ورد في الانجيل

﴿ زواجهُ ﴾ ويظهر من عدَّة مقاطيع من شعرهِ انهُ كان مقروناً بالزواج فيذكر زوجتهُ ويرثي ولـدًا لهُ وحيدًا مات في العشرين من سنّهِ وخلّف ولدًا صغيرًا اسمهُ ابراهيم سبق والدهُ الى القبر (من البسيط) :

قد كنتُ ربَّيتُ نَجْلًا قلتُ ينفعني بعد المماتِ فماتَ النجلُ من دوني

جادت عليَّ الليالي في تصرُّفهـا فبانَ عن والـدٍ مفجوعٍ محزونِ

كغصن بانٍ تثنَّى في شبيبتـهِ في جسمهِ او كأغصان الرياحينِ

دفنتُهُ ابنَ عشرينَ وهـا أنـذا شيخٌ بـلغتُ الى عـصر الثمانينِ

لو استطعتُ فداهُ مـا فُجِعتُ بهِ وكيف يُعطَى فِداهُ وهو يفديني

أظـلُّ مستوحشاً ممَّن يؤانسني ابكي فمـا احـدٌ منـهُ يُسلّيني

قد اشتهيتُ أُتِمُّ العمرَ معتصماً بتوبةٍ في ديارات الرهابينِ

حتى اموتَ ونفسي غير آسفـةٍ عـلى حيـاةٍ الى موتي تؤدّيني

لولا حريمٌ أُراعيهم واحفظهم فهم عن الزهد في الدنيا يَعيقوني

يا ربِّ فأستر لأعمالي اذا كُشِفت يوم المعـادِ بديوان الـدواوينِ

فبيعةُ اللهِ أَولى بي وأَحفظُ لي　　من كلّ حافظةٍ كانت تُربّيني

وقال في محلّ آخر يذكر وفاة ابنهِ الوحيد (من البسيط):

حلّ المشيبُ برأسي بعد صبغتهِ　　وحُسنهِ فلَبِستُ الضُّعفَ والخرَفا

قد كنتُ آمَلُ بأْبني ان يساعدني　　على الزمان فاذ كادَ أستوى حُتِفا

أَلِفتُهُ فقضى دهري بفرقتهِ　　ولستُ اوّلَ مفجوعٍ بمَن أَلِفا

فصرتُ فردًا وحيدًا غيرَ معتقِبٍ　　إبناً فأُشغَف في الدنيا بهِ شغَفا

يانفسِ ان ضَعُفَت منكِ القوى هَرَماً　　فما يُعينك إلّا راحمُ الضُّعفا

ومن قولهِ اللطيف الدالّ على رقة قلبهِ واسفهِ على فقيدهِ (من المنسرح):

يا ساكناً بالتراب يا سكَني　　مشتملًا في التراب بالكفنِ

اني اخافُ التُّرابَ يُفسدُ ما　　لامَسَهُ من نعومةِ البدنِ

يا حبَّذا مضجعٌ حلَلتَ بهِ　　لولا غِطاءٌ لوجهك الحسنِ

ازورهُ أَشتكي جفاهُ فما　　يسمعُ قولي ولا يكلّمني

اشغَلَهُ الدهرُ عن موآنستي　　ومنهُ بعدَ الدنوّ أَبعدني

هيهاتِ لا عَودةٌ تقرّبني　　منكَ ولا ان شكوتُ ترحمُني

﴿زهدهُ وترهّبهُ﴾ رأيتَ ان المترجم كان مرتبطاً بروابط الزواج وابنهُ كان متقدّماً بالعمر على انهُ كان يتوق الى حلّ قيودهِ ليزهد في الدنيا ويترهّب وقد تحققت امانيُّهُ كما يظهر من بعض اقوالهِ في قصائدهِ حيث يذكر انهُ ترهّب في القدس قال في اوّل لاميّتهِ (من الطويل):

ترهّبتُ زهدًا من مباشرةِ النَّسلِ　　واعرضتُ إعراضاً عن المال والاهلِ

وقلتُ لنفسي حان ان تتيقَّظي فانك في فعل الرذائل في شُغْلِ
وما لبس الناسُ السوادَ لِحُسنهِ ولكنّهُ ثوبُ التواضُع والـذلِّ
تراءى لنا فيهِ المسيحُ تَنَسُّكا لنزهدَ في ثوب التعظُّم والنُّبْلِ
وسرتُ الى البيتِ المقدّس تائباً من الإثم في غُصْن الشبيبةِ والجَهْلِ

وختمها بالاستغفار من السيد المسيح فقال:

أَقِلْني خطائي واعْفُ عن قُبْحِ زلّتي فمثلُكَ مَن يعفو على خاطئٍ مثلي

﴿اسقفيّتهُ﴾ والظاهر انَّ هذا الشيخ الجليل الذي ترهَّب بعد الثمانين من عمرهِ حتى كاد يبلغ الهرَم رُقّي الى درجة الاسقفية. وذلك ممَّا صرّح بهِ مخطوط مكتبة القبر المقدَّس السابق ذكرهُ حيث اشارَ الى بعض تآليفهِ (ص٥٣) التي سيأتي ذكرها فقال ما حرفهُ: «مسائل واجوبة من ديوان الغزّي وكان اسمهُ سليمان وكان مطران غزّة رضي الله عنهُ». فهذه الافادة النفيسة تزيد في تاريخ النصرانيَّة في الشرق بعض الايضاح ولاسيما غزَّة التي لم يُعرَف شيء من اخبارها في القرون الوسطى. وفي قصيدتهِ الفائية الّتي مطلعها (من الكامل):

النفسُ تبقى والجوارحُ تتلفُ حتّى يبيد الهيكلُ المتألّفُ

يصرّح باسقفيتهِ حيث يقول:

يا بيعة الله الكريمةُ إسمعي ممَّا يقولُ في الكتابِ الاسقفُ
فهو المخاطبُ عن مسيح الله في ناموسهِ وهو الأعزُّ الاشرفُ
لا تغفلي عمَّا يقولُ تكبُّرًا فذوو الفساد من الاجابةِ يأنفوا

والى مثل هذا اشار في محلّ آخر متواضعاً (من الوافر):

بنو امّي عسى أن تستغفروا لي خطائي بين اولادِ الزّوانِ

فقد نجّستُ ثوبَ القدس جهلًا بمَن بجَلال كسوتهِ كساني

ومّما يستفاد ايضاً من ديوان سليمان الغزّي انه كان غنيّ الحال ثمّ ابتلاهُ الدهر ببلاياهُ وفي ذلك يقول (من البسيط):

قد كنت في نعمةٍ لله سابغةٍ لو طاوَلُوها ذوو الاقدام لم يصلوا
زالت وما زالتِ الايّامُ تفسدها كانت لهُ اصلحت بالناس لو عقلوا

وقال في محلّ آخر (من الطويل):

طمعتُ بذي الدنيا فصرتُ الى البلى كما صار قبلي لِلْبلى كلُّ طامعِ
وقد قسّم الورّاثُ مالًا ذخرتُهُ فنفعُهُم من تركتي غيرُ نافعِ
فكلُّ الذي جمّعتهُ واقتنيتُهُ من المال والاولادِ ليس بتابعي
ولا بُدَّ ان يسترجعَ الدهرُ كلَّما أَعارَ وأعطى يوم ردِّ الودائعِ
فطوبى لمن يأتي بربحٍ وويلٌ من يوافي بخُسرانٍ ووَكْسِ بَضائعِ

ومثله قولهُ في نكبات الدهر (من الخفيف):

دفعَتْني ايّامُهُ والليالي من علوّ القصور للاجداثِ
وكذا كلُّ من تقدّم قبلي قطعَتْهُ نوائبُ الأحداثِ
كلّ راثٍ لغيرهِ من حتوفٍ سوف يَلقى من حتفهِ غيرَ راثِ
وجديدِ الزمان من بعد حينٍ يتلاشى الى البلى والرّثاثِ

ويُستفاد ايضاً لتاريخ حياة سليمان شاعرنا ما قالهُ في الاديرة التي احتلّها وتبرّك منها (من الوافر):

رأيتُ القدسَ في حلم المنامِ كضوءِ النور في كدر الظلامِ

فقدَّمتُ المَسيرَ اليـهِ أسعى على قَدَمَيَّ في عُقب الصيامِ
وحيدٌ لم يُصاحِبْني رفيقٌ لخوفي من فساد الإلتئامِ
نزلتُ بديرِ صَمْويلَ(١ المعلَّى تجاهَ الطُّور من جهةِ الشآمِ
لأَدْخلَ بيت صهيونَ(٢ المزكَّى فأُقرئَ ساكنيهِ بالسلامِ
وأجعلَ مَرْيُحَنَّا(٣ في حلولي بارض الغَور للنَّجوى امامي
وارقى الذوق والُحوريب(٤ ايضاً كأنْ رؤيايَ فيهِ لـهُ ذِمامي
وفي دير البِقاع(٥ هجعتُ ليـلًا وإخواني على بَرْدِ الرُّخامِ
ونحو السِيقِ اعني سيقَ سابا(٦ همتُ فلا يخيب ليَ اهتمامي
دخلتُ بغير جاريةٍ اليـهِ ولا امرأةٍ على شكل الغُلامِ
وفي دير الدواكس(٧عدتُ اعدو سريعاً مثل طيَّار الحَمامِ
ومنهُ الى كنيسةِ بيتَ عَنْيا دخلتُ مجرَّدًا مثل الُحسامِ

---

١) يُعرف اليوم بنبي صموئيل لقبر هذا النبي في مكانهِ وموقعهُ على تلّ عالٍ يُشرف على القدس من جهتها الشرقية وهو بينها وبين عمواص كان فيهِ قديمًا دير للرهبان

٢) احد الجبال المبنيَّة عليها مدينة القدس وهناك كانت العليَّة التي اكل فيها السيد المسيح العشاء السرّي قبل موتهِ . هي اليوم في حوزة المسلمين

٣) هو احد الاديار المتعدّدة التي كانت قديمًا في جهات الغور قريباً من نهر الاردنّ بُني على اسم القديس يوحنا المعمدان

٤) الذوق هو ايضاً من الادبرة الشهيرة التي اقامها النصارى في المكان الذي صام فيـهِ السيد المسيح اربعين يوماً . وامّا حوريب فجبل سينا الذي تجلّى فيهِ الرب لموسى

٥) ليس البقاع هذه بقاع لبنان وانمّا هي سهل واسع ليس بعيدًا من بيت لحم كان فيهِ دير نسبهُ الشاعر اليهِ

٦) السيق لفظة اعجميَّة يراد بها الدير . ودير القديس سابا دير شهير للروم في وادٍ عميق بين القدس وأريحا . لا يزال عامرًا

٧) احد الادبرة الشهيرة التي كانت في غور الاردنّ تُرى الى اليوم بعض آثارهِ

لأسمعَ صوتَ رهبانٍ أَووها وألثمَ قبرَ عازَرَ في الرُّخام
وأَسمع في كنيسةِ بيتَ لحمٍ من الانجيل تفسير الكلامِ
وفي صِهْيونَ قمتُ وقام فيهِ ليغسل أَرْجل الرُّسل الكرامِ

﴿وفاتهُ﴾ لم نقف على تاريخ وفاة سليمان الغزّي كما انَّنا لا نعلم بأيَّة ميتةٍ مات. وقد أَفاد جناب عيسى افندي في مقالتهِ (ص ٦٢٠) انهُ «مات شهيدًا كما رأى ذلك في بعض التعاليق على نسخة من ديوانهِ». فان صحَّ الخبر كان للغزّي فخرٌ جديد اذ اصاب ما تمنَّاهُ واشار اليهِ بشعرهِ حيث قال يذكر هيكل جسدهِ ويطلب تضحيتهُ لربّهِ (من الكامل):

وبهِ امجّدهُ لوَ اُعلَمُ أَنَّهُ يَرْضى بصبري تحت ضرّ بلائي
حتى تتمَّ شهادتي فيكونَ لي كأسُ المنيَّةِ مثلَ كأسِ دَواء
واقومَ عن يمناهُ وارِثَ ملكهِ اذ كان فقري موجباً لغنائي

وعلى كل حال ان ثبت خبر استشهادهِ وجب القول انهُ نال هذه النعمة بعد حياةٍ طويلة تجاوزت الثمانين حتى ناهزت التسعين من عمرهِ.

﴿علومهُ﴾ خلَّف سليمان الغزّي ما عدا ديوانهُ آثارًا اخرى متفرّقة يُستدلّ منها انهُ كان ضليعاً بالتاريخ الكنسي والعلوم الدينية وفنّ المجادلة مع المخالفين. فممَّا رُوي عنهُ في مجموعة كبيرة مخطوطة في مكتبة القبر المقدَّس (تحت عدد ١٠١ ص ٨٥) في اوَّلها عدَّة مقالات لبولس ابن الراهب وللشيخ المكين نشرناها سابقاً. ثمَّ كتابٌ في اثبات الامانة هذا عنوانهُ (ص ٥٣): «وايضاً نكتب شيئاً في برهان الامانة ممَّا رتَّبوهُ (كذا) المجامع المقدّسة والآباء الثلثمائة وثمانية عشر والآباء القدّيسون مسائل واجوبة... من سليمان مطران غزَّة». وهو يبتدئ بذكر المجمع الاوَّل لمجمع نيقية. وقد وقفنا على نسخة من هذا الكتاب في مجموعة للخوري الفاضل الاب قسطنطين الباشا ناسخها «صفرونيوس بن موسى الطرابلسي ابن الحاج سليمان الطرابلسي البتروني الاصل سنة ٧١٥٢ للعالم (١٦٤٤ م)»

ثمّ لهُ في مجموعة القبر المقدّس المذكورة مقالة ثانية هذا عنوانها : « وللغزّي ايضاً رضي الله عنا وعنهُ في معنى ايمان النصارى » . يتبعها مقالة ثالثة اوّلها « اللهمَّ اني اسألك بمحبة ناسوتك »

ومثل هذه المقالات ما اطّلعنا عليهِ في مجموعة للمنسنيور جرجس منش في حلب ومجموعة مثلها لحضرة الخوري قسطنطين الباشا « رسائل وردود للغزّي على المخالفين للامانة المستقيمة وعلى الهراطقة كآريوس واوطيخا ونسطور ويعقوب البرادعي وساويروس » ثمّ مقالات اخرى عندهما في وحدانيّة الخالق وفي التجسّد والصلب وفي الانسان والعالم . وبعض فصولها مسجَّعة

وهذا مثال من نثرهِ وهو دعاء مسجَّع ننقلهُ عن احدى نسخ ديوانهِ المصونة في مكتبتنا الشرقيّة (ص ٩٧)

اللهمَّ اني اسألك يا نور الانوار ، وعالِمَ الاسرار ، وكاشف الاضرار ، الملك الجبَّار ، ذا العزّة والوقار ، مُنزل الامطار ، ومحصي نبات الاشجار ، وواضعَ الارض في القرار ، وجاعل الشمس لضياء النهار ، الذي اسكنَ الوحوشَ القفار ، والسمكَ البحار ، والجوَّ صنوفَ الاطيار ، يا من لا تحويهِ الامكنةُ والاقطار ، ولا تُدركهُ العقول والابصار ، ولا تغيرهُ الازمنةُ والادهار ، خالقَ الانسانِ المختار

اللهمَّ نسألك بحلول كلمتك الازليّة ، في العذراء النقية ، ان تجعلنا من الابرار ، وان تخلّصنا بقيام مسيحك من شرّ الاشرار ، انك لم تُهمل انسانك في سقطتهِ الى الابد ، بل تعطَّفت عليهِ بعد طول المدد ، واصلحتَ منهُ ما كان فسد ، وفككتَ من سبي الموت نفسهُ والجسد . حينئذٍ ابصر بعد العمى . ورَوِيَ بعد الظما ، وصارت السماء لهُ ارضاً والارضُ سما ، فاشكري يا نفسي إلهكِ المحسن اليكِ والمسبغ نعمَهُ لديكِ ، كما يجب عليكِ ، انهُ تعالى المستحقُّ المديح ، والمستوجب الاكرام والتسبيح ، الآن وكل اوان الدهر الداهرين . امين

ولهُ دُعاء يطلب فيهِ من الله ان يجعل نظرهُ على الكنيسة التي تولى تدبيرها كأسقفها اعني غزّة فقال متأنقاً :

اللهمَّ بقاف القدرة ، وميم المُلْك ، وحاء الحياة ، ونون النُّطق ، وجيم الجلالة ، وهاء الهيبة ، وواو الوقار والوحدانية ، والكاف الجامعة بين الكَون والكلمة ، اسألك ان ترحم هذه الكنيسة القليلة المدد ، المائلة الأَوَد ، أعطِها يا ربّ حياة الابد ، وخلّصها من كل شرّ ونكد ، بشفاعة أجلّ مَن حملَتْ ولد ، العذراء امّ النور وجميع القديسين . آمين

﴿ ديوانهُ ﴾ هو اوّل ديوان نصراني بَحْت فانّ قصائدهُ كلّها لا تحتوي غير المعتقدات المسيحيّة والمعاني المسيحيّة والاشارات المسيحيّة بحيث يجوز ان يقال انهُ هو

اوّل شاعر نصراني ديني له التقدُّم على كل الذين ظهروا بعد ذلك في القرون التالية. والغالب على القصائد الوصف والمديح والزهد وبعض الرثاء

والقصائد المذكورة تنيف عن السبعين ومعظمها بين الاربعين والخمسين بيتاً ومنها ما يزيد عن السبعين بل لهُ ارجوزة الفية تنيف على مائتي بيت يكاد المجموع يبلغ قريباً من ثلثة آلاف بيت من كل بحور الشعر. وفي رأس كل قصيدة دعاء من الناسخ كالوف عادة كتبة الدواوين الاسلاميَّة فتارة يطلب لهُ الغفران وتارة يترحَّم عليهِ وحيناً يدعو لهُ بالخير كقولهِ: «قدَّس الله روحهُ ونوَّر ضريحهُ» وكقولهِ: «زاد الله برَّهُ واجزل ثوابهُ» او «عظَّم الله اجرهُ» او «اضاء الله رمسهُ» او «آنس الله وحدتهُ» او «رضي الله عنهُ» او «سمَّح الله نفسهُ» الى غير ذلك من الادعية الدالَّة على اعتبار الكتبة لهذا الشاعر

واذا أعملنا بصر الانتقاد في شعر سليمان الغزّي وجب ان نفرق بين نظمهِ ومعانيهِ. فانَّ نظم الشاعر لا يخلو من ضعف سواء كان في التركيب ام في الجوازات الشعريَّة فانَّ في قصائدهِ اغلاطاً نحويَّة ومسوَّغات شعريَّة تجاوز فيها الحدود عن سواهُ من الشعراء. ولعلَّ بعض هذه الاغلاط اللغويَّة والخلل في ضبط الاوزان الشعريَّة قد تسرَّب الى ديوانهِ بفعل الناسخين او قل بالحري الماسخين. فمنها ما يصعب اصلاحها. ألا انَّ هناك من الشوائب ما لا يمكن نسبتهُ لغيرهِ لغةً ونظماً فيُسكن المتحرّك ويحرّك الساكن ويصرف ما لا ينصرف ويمنع المعرَّب عن اعرابهِ ويجمع الفعل مع ظهور فاعلهِ وينصب المرفوع ويرفع المنصوب ويبدل همزة الوصل بهمزة القطع ويعكس الى غير ذلك ممَّا يدلُّ على انهُ لم يدقّق في ضبط اللغة وفي لزوم قوانين العروض

على انَّنا لا يمكنَّا ان ننظم شعرهُ في جملة الشعر العامّي فانَّهُ اعلى منهُ طبقةً واضبط وزناً

امَّا المعاني فانَّ شاعرنا يجاري فيها كبار الشعراء فانهُ يحسن إبراز افكارهِ بصورة لطيفة ويعرضها بالتشابيه البديعة والتعابير الرائقة ويتفنن بالمعاني فيخرجها على ضروبٍ شتى تزيدها رقَّةً وتأثيراً في القلوب. وها نحن نختار بعض المقاطيع من شعرهِ ليقف القرَّاء على محاسنهِ. ومن ديوانهِ في مكتبتنا الشرقيَّة خمس نُسخ ترقى اقدمها الى نحو القرن الخامس عشر قد سقط اوراق قليلة من اوَّلها وآخرها. وكُتبت الثانية والثالثة

في القرن السابع عشر. والرابعة تاريخها السنة ٧٢١٢ لآدم (١٧٠٤م) بيد الشماس عيسى ابن جرجس عازرية. والخامسة حديثة العهد. فمن قوله الذي افتتح به احدى نسخنا وصفه للايمان الحق وتابعيه ظاهراً وباطناً (من البسيط):

ما كلُّ معتمدٍ بالماء نصراني ... غيرَ اعتمادِ حياةِ العالَمِ الثاني (١

وبالمسيح شعوبُ الارض إعتمدوا ... ونافقَ البعضُ منهم بعدَ ايمانِ

صاروا كاعضاء جسمٍ في طبيعتهِ ... منهم مُعينٌ ومنهم غيرُ أعوانِ

كم بطركٍ غيرِ محمودٍ بخدمتهِ ... واسقفٍ غيرِ مغبوطٍ ومطرانِ

من الاراطقةِ المشهورِ ميلُهمُ ... عن الصواب الى زُورٍ وبُهتانِ

قد فضَّل اللهُ عنهم بيعةً جمعت ... احجارُها من اقاليمٍ وبلدانِ (٢

بَنَى لها الحقُّ بُنْياناً فارْتفعتْ ... الى السماء بأعمادٍ واركانِ

من الزَّبرجد في ترتيبهِ نُظمتْ ... ما بينَ دُرٍّ وياقوتٍ ومَرجانِ

اساسُها صخرةُ الايمانِ راسخةٌ ... من تحتِ ذاتِ اساطينٍ وحيطانِ

وكلُّ ذي جسدٍ يحلو لناظرهِ ... اذا تراءى باجناسٍ وألوانِ (٣

فالرومُ والروسُ والافرنجُ حلُّوا بقُرْ ... بِ الهندِ والحُوزِ والأبخازِ واللانِ (٤

والارمنيُّون والبَشْناكُ وافقهم ... اهلُ الجزيرة اعني اهلَ حرَّانِ

وارضُ شيرازَ والاهوازِ فاتَّفقوا ... مع العراقِ الى اقصى خراسانِ

من مطلع الشمس حتّى حدِّ مغربها ... الى الفراتِ وسَيْحانٍ وجَيْحانِ (٥

١) يريد ان معموديَّة الماء لا تكفي للخلاص دون معموديَّة الروح بقداسة الحياة

٢) يريد بالبيعة الكنيسة الحقيقيَّة وبأحجارها مؤمنيها

٣) اي انَّ الكنيسة الواحدة تقوم بشعوب مختلفة بالجنس واللون واللغة مع اشتراكهم بالايمان الواحد ٤) الحوز اهل خوزستان في بلاد فارس. والابخاز جيلٌ من الناس في بلاد الكرج. واللان اهل بولونية

٥) سيحان وجيحان نهران كبيران في تركستان

بيضٌ وشُقْرٌ وسُمْرٌ في كنائسهم قد سبَّحوا الله مع صُفرٍ وسُودانِ
فكلّ قومٍ الى دينِ المسيحِ أتوا وبالهدى رَبِحوا من بعدِ خُسرانِ
شعوبُ شعبٍ لكلّ منهم لغةٌ تبلبلَت من لسان كان سرياني (١
وكان منطقُ رُسْلِ الله قد خُلقوا قبلَ الرسالةِ بالانجيل عبراني
صارت لكلّ رسولٍ منهمُ لغةٌ جميلةٌ ذاتُ إسنادٍ وبنيانِ
ولم يُحابوا بتعليمٍ وما عرضوا ايمانهم في الورى إلّا ببرهانِ
لذلك افترقوا في نشرِ دعوتهم ولم يخافوا جميعاً كَيْدَ شيطانِ
حتى اذا كَمَلَتْ لله خدمتُهم ناموا فكم ابغضوا نوماً ليقظانِ (٢
وقام في عصبةِ الشيطانِ بعدَهمُ مذاهبٌ ذاتُ إشراكٍ وطغيان
فقال أرْيُسُ نُطقُ الله خالقنا اعني القديمَ حديثٌ زائلٌ فانِ (٣
وقال مكدونيُوسُ الروحُ ليس لهُ اقنومُ في عددٍ اذ كان جسماني (٤
وقال نسطور ناسوتُ المسيح على لاهوتهِ جوهران او قَنُومانِ (٥
وقال يعقوب قولُ الله صحّ لنا من ذات اقنومَ لا من ذاتِ ثُنْيانِ (٦

الى ان ختم بما ذكرناهُ سابقاً

---

١) زعم بعض القدماء انّ اللغة السريانيَّة كانت لغة الابوين الاولين

٢) اراد بنومهم موتهم في سبيل المسيح . امَّا نوم اليقظان فاشارة الى الخاطئ العائش في خطيئتهِ

٣) يريد بالنطق السيد المسيح كلمة الله الذي زعم اريوس انهُ مخلوق فحرمتهُ الكنيسة في المجمع النيقوي

٤) كان ضلال مكدونيوس بقولهِ انَّ الروح القدس مخلوق من الابن وليس بإله فحرمهُ المجمع المسكوني الثاني

٥) جعل نسطور في السيد المسيح اقنومين احدهما انساني سبق بمولدهِ والآخر إلهي اقترن بالانسان ومن ثمَّ نكر أُمومة مريم الالهيَّة فحرمهُ مجمع افسس

٦) هو يعقوب البرادعي القائل بانَّ في المسيح طبيعةً واحدة كما هو اقنوم واحد وهذه البدعة حُرمت في المجمع الخلقيدوني

هذي مذاهبُ اقوامٍ لكفرهمُ ضلُّوا الهدى من طريقٍ شبهَ عميانِ
فالفضلُ للأرثذكسيّين (١ انهمُ تمذهبوا مذهباً في الله حقّاني

وينسب في هذه القصيدة لابن الله قبل تجسُّدهِ ما صنعهُ من العجائب مع بني اسرائيل اذ خلّصهم من ظلم فرعون وقادهم الى ارض الميعاد ثمَّ يُلحقها بعجائبهِ بعد تجسُّدهِ فقال :

فهو المخلّص لإسرائيلَ من رجلٍ عاداهُ في ظلمهِ موسى بنُ عمرانِ
وهو الذي من مياهِ البحرِ أخرجهُ جهرًا وانزلهُ في ارض فارانِ
وهو الذي بسحاب الغيمِ ظلّلهُ فلم تضرّ لهُ شمسٌ بأبدانِ
وهو الذي أنبع الأمواهَ من حجرٍ صخرٍ ليشربَ منهُ كلُّ عطشانِ
وهو الذي إصطفى هارونَ مغتفرًا ماثمَ الشعبِ في تقريبِ قربانِ
وهو المؤدّي لإيشوعَ ابنِ نونٍ الى ارض الوراثةِ من أعمال عمَّانِ
وهو الذي ردَّ قرنَ الشمس في مغربٍ حتى تمكّن من تهديم سيرانِ (٢
وهو الذي قد بنى صهيونَ بيعتَهُ قُدساً فتمَّ بناها من سليمانِ
وهو الذي بكلام الحق أوحى بأن يقيمَ فيها ملوكًا ذاتَ تيجانِ
وهو الذي لشعوب الارض أسكنها فقادهم نحوها من غير إمهانِ
وهو الذي بطِلاء الطين ابرأ عينَيْ مَ أكمهِ فشُفي في عين سلوانِ
وهو الذي طهّر البرصَ الأُولى طلبوا منهُ شفاءً فنالوا طُهرَ ابدانِ
وهو الذي أشبع الآلافَ حين أتَوْا خبزًا واكفاهمُ من خمس رُغفانِ
وهو الذي مسَّت الإمرأةُ بردتهُ فعوفيَت من نزيفٍ من دمٍ قانِ

١) ليس معنى الارثذكسيين هنا كنيسةً خاصة بل الكنيسة الحقيقيَّة المستقيمة الرأي المبنيَّة على الصخرة البطرسيَّة. والكنيسة الرومانيَّة تُدعى بالكنيسة الاورثذكسيَّة في صلوات التقديس

٢) جمع بين آيتين ليشوع لمَّا اوقف الشمس في مسيرها ثمَّ لمَّا اخرب اسوار اريحا بابواق الكهنة. السيران جمع سُور

وهو الذي أَمر المخلوع يحملُ ما قد كان يعلو عليهِ فوق أَمْتانِ (١

وهو الذي ضرَبَ الجانَ الأُولى عَلِقوا بالمجدليَّةِ ربُّ الإِنْس والجانِ

وهو الذي حوَّل المَا يومَ عُرْسهمُ خمرًا وريحتُهُ أذكى من ٱلبانِ

وهو الذي سار فوق البحر مُنْطَلقاً يمشي على البحر اكراماً لسمعانِ

وهو الذي يومَ سبتٍ قال: عازرُ قُمْ فقام مشتمـلًا اثوابَ أَكفانِ

وهو الذي منح الغفران خاطئةً أَلقت على قدَمَيْهِ طيبَ أَدهانِ

وهو الذي غسَّل الأَقدامَ متَّضعًا لرسلِهِ كحكيمٍ صالحِ الشانِ

وهو الذي من جحيم النار أنقَذَنا بعد الهلاك بإِثم الوالدِ الجاني

الى ان ختم بقولهِ:

فسبِّحوا اللهَ يا اولادَ بيعتـهِ ومجِّدوا بمزاميرٍ وأَلحانِ

ثمَّ أُطلبوا منهُ للمسكينِ قائلِها أجرًا يؤُولُ الى فوزٍ بغفرانِ

ومن محاسن قولهِ وصفهُ لزوال العالم وتحريضهُ على التوبة (من البسيط):

لا يعجبنَّكَ من يصفو لهُ الزَمنُ فالمرءُ عند صفاء الدَّهر يُمتحَنُ

وارغَبْ بنفسك عمَّا ليس ينفعُها فلا سرورٌ لهـا يبقى ولا حَزَنُ

أَما ترى حرَكاتِ الدهرِ دائرةً لا تستقرُّ ولا يُبْطي بهـا وَهَنُ

يُباينُ البعضُ بعضاً من كواكبها ويدنو بعضُها من بعضٍ فيَقترنُ

كم فرَّقت شملَ قومٍ بعد وَصْلِهِمُ وجمَّعت شملَ قومٍ غيرهم فدَنوا

كم من عظيمٍ جليلٍ من ذوي ثقةٍ لـهُ المهـابةُ والافضـالُ والمِنَنُ

اتى الزمانُ عليهِ في تصرُّفهِ فأُعدِمَ الملكُ والسلطانُ والسَّكَنُ

كفى بهم أَنَّهم عن رَبْعهمْ رحلوا الى القبور كقوم قبلَهم ظَعَنُوا

١) جمع مَتْن اي كتف

والتربُ يحجبُ جسماً عزَّ مطلبهُ ولو تمزَّقَ عن اعضائهِ الكفنُ
ويأكل الدودُ ابداناً منعَّمةً ولا يعزُّ عليها منظرٌ حسَنُ

ومن محاسن اقوالهِ ما انشدهُ في قيامة السيد المسيح (من الكامل):

زالت شكوكُ الناسِ والأوهامُ في البعثِ اذ قامَ المسيحُ فقاموا
والحقّ يشهد أنّهم من آدمٍ ماتوا وبادت في التراب عظامُ
حتى تجسَّد للخلاص مبشِّرًا بحياتنا فجلَتْ لهُ الأيَّامُ
هذا الذي أحيا لنا لاهوتُهُ ناسوتَهُ فالموتُ منهُ منامْ
والقبرُ مفتوحٌ تقدَّس باسمهِ وعلا على كلِّ البلاد الشامُ (١
يا قبرُ اين يسوعُ هل وصلوا الى ما دبَّروهُ بموتهِ الحكّامُ
يا قبرُ هل بلغَ العداةُ مُرادَهم ام فاتَهم بحسابهم ما راموا
يا قبرُ خفَّ لك الالهُ كرامةً وسقاكَ من كأس الحياةِ غمامُ
يا قبرُ نورُ اللهِ فيك مُشعشعٌ جندُ السماء لمجدهِ خدَّامُ
يا قبرُ انَّك في القيامةِ شاهدٌ عدلٌ لاجلك قامتِ الاجسامُ
هذا الذي وهبَ الحياةَ لآدمٍ فتحيَّرت لصفاتهِ الأفهامُ
لو لم يَمُتْ لما انقضَتْ تَوَرَاتُهم وتعطَّلت بفروضها الأحكامُ
أنتَ الإمام لمن زكَتْ أفعالُهُ والحقُّ فيما قد تقولُ إمامُ
طوبى لمعتمدين بأسمكَ ثمَّ مَنْ بسطوا يدَيهم في الصلاةِ وصاموا
طوبى لمن هربوا اليك وخلَّفوا اموالَهم للوارثين وهاموا
طوبى لمن حملوا كما آمرتَهم صُلبانَهم فهمُ عليك كرامُ

١) يعدّ الشاعر القدسَ الشريف من الشام كما ترى

لولا الامانةُ لم تصحَّ ظنونُهم أبدًا ولم تُصدِّقهمُ الأَحلامُ
قرَّبتَ لحمَ الفِصْح عن آثامنا خبزًا وصار لنا الحياةَ مُدامُ
فتقرَّبوهُ يا بني ميراثهِ فمساها تَسقطُ عنكمُ الآثامُ
وأدعوا لمن قال القصيدَة انهُ رجلٌ يحقُّ لمثلِهِ الإكرامُ

وقد احسن في وصف نوائب الدهر فقال (من البسيط):

حَبْلُ الوصالِ من الأعوانِ منصرمُ وكلُّ ما بنَتِ الايامُ منهدمُ
يا دهرُ رُدَّ الى جسمي شبيبتَهُ فقد تعالى عليَّ الشَّيبُ والهرَمُ
أَبكيْتَني بعد ما أَضحكتَني زمناً والناسُ لا بُدَّ أن يبكوا ويبتسموا
وساكنو هذه الدُّنيا على وَجَلٍ من المنيَّةِ والموجودُ منعدمُ
دنياهمُ اخبَرَتنا ما الذي فعلَتْ قد شتَّتتْ شملَهم بادوا وما سَلِموا
قد كنتُ ابكي على توديعهم أسفاً فأرتجي يومَ لُقياهم اذا قَدِموا
واكتمُ الدَّمع خوفاً للفراقِ وما أُطيق كتمانَ دمعي وهو منسجِمُ
إني لأعجب يومَ البَيْنِ من جَلَدِي والنارُ في باطنِ الاحشاء تضطرمُ
يا نفسِ قومي بخوفِ اللهِ تنتفعي انَّ الأُلى كفروا بالحقِّ قد أثموا

ومن ظريف قولهِ ما وصف بهِ الايمان المسيحي ومفاعيلهُ العجيبة (من الطويل):

بمعرفةِ الايمان أَثبتَتْ حُجَّتي وتدنو من الآب القديمِ بُنُوَّتي (١

١) يريد ان المسيحيَّ بالمعموديَّة ينال شرف البنوَّة الالهيَّة كما ورد في الاسفار المقدسة

بمعرفةِ الايمان عُمّدتُ كالذي بإعمـادهِ بالمـاء طهّر حُـلّتي (١

بمعرفة الايمان أسمعُ منطقاً لانجيلهِ من قُدْس صهيونَ تَبعتي

بمعرفةِ الايمان أمحَضُ وُدّ مَنْ يجاهرُ في بُغضي ويبغي منيّتي

بمعرفة الايمان أحفظُ جانبي وادعو المساكين الاصاغرَ اخوتي

ومَن لطم الخـدّ اليمين أدِرْ لـهُ شمالي ولم أحقِـدْ عليـهِ بلطمتي

وأتركِ عن ذكر القبيح تَغـافُلا لقومٍ أرادوا بالقبيح أذيّتي

بمعرفةِ الايمان أخلعُ زينتي إذا كان ثوب الكِبْر يوجب سقطتي

وألبَسُ ثوب ٱلإتّضاع وذِلّهُ ليُوجب يوم البَعْث عزّي ورفعتي

بمعرفة الايمان أُطعِم جائعاً وأكْسُو لِعُرْيانٍ إذا شاء كُسْوتي

ولـلغُرَبا آوي من الـبرد منزلي وأكرمهم في حال ضعفي وقوّتي

بمعرفة الايمان أُصبح باذلا لكلّ عليل أو حبيسٍ مَعونتي

الى ان قال مخاطباً السيّد المسيح :

فيا سيّدي أنت الطبيبُ لعلّتي وموجبُ أسبابَ الحياةِ لسَقْطَتي

كتابك ناموسي وجسَدُك هيكلي ووجهُكَ في أعلى السماوات قُبْلتي

وفيك اذا صلّيتُ أسجـدُ موقناً بانَّ إلاهَ الـعرش يسمَعُ دعوتي

ويقبـلُ قرباني بك اللهُ خـالقي ويُصـلح أحوالي بموتي وعيشتي

وقال يذكر تتمّة النبوّات بمجيء المسيح من قصيدة (من الكامل) :

١) يشير الى عماد السيد المسيح الذي قبلَ عمادَ التوبة من يد يوحنّا المعمدان كي يعطينا العماد المطهّر من الخطايا

وتجسَّم النُّطقُ القديمُ تجسُّماً (١ تاريخُهُ وحسابُهُ محسُوبُ
سبعون سابوعًا سنينـاً أُحصِيَتْ من دانيـالَ ودانيالُ لبيبُ
ولقـد أتى داؤودُ في ميـلادهِ قولًا عن الربّ القـديم ينوبُ
إذْ قال: قال الربُّ أَنت اليومَ لِيَ م ابنٌ وإن ماأتتْ عليك شعوبُ
ويقول شَعْيَا تحبـلُ العـذرا بمن للنـاس بالميراثِ منـهُ نصيب
ولقد تنبَّأَ عن يهوذا مُعلناً بالحقّ عنهُ شيْخُـهُ يعقوبُ
إذ قال إنَّ المُلْـك منـهُ ينقضي والانبيـا إذا أتى المحبوبُ
يعني مسيحاً قـام مَلْكاً في السما وعدوُّهُ بصليبهِ مصلوبُ
هذا الذي إنجيلُـهُ لشعوبهِ بالحقّ من داء القـلوب طبيبُ
وبموتهِ أحيـا طبيعـةَ آدمٍ إذ كان آدمُ لـلخطـاء رَكوبُ
يا ربِّ مَتِّعْنا بهيكل قـدسهِ للدهر انّك للـدعاء مُجيبُ

وقد قال في مديح العذراء مريم ووصف بشارتها (من الوافر):

سما شرفٌ لمريمَ في العذارى وفخرٌ في جميع الاصفيـاء
فأمسَتْ في الدهور بلا مثالٍ بتولًا وهي امٌّ في سَوَاء
أتاها بالبشارةِ جبرَئيـلٌ مـلاكُ السرّ في حُلَـل البهـاء
فقال: حَييتِ مريمُ لا تُرَاعي مباركةً تكوني في النساء
بحقٍّ تحبـلين الآن بابنٍ هو ابنٌ لعليٍّ الـكبرياء

١) اراد بالنطق كلمة الله الازليَّة التي حلَّت فينا وصارت جسدًا

يكونُ لهُ على يعقوبَ مُلكٌ الى دهر الدهورِ بلا فناء

فقالت للملاك: وكيف هذا وما بشرٌ تقرَّب من رِدائي

فقال: عليكِ روح الله يأتي وقوَّتهُ تحلُّ من العلاء

ومَن تلدينَ فالقدُّوسَ يُدعى وإبْنَ الله يُسمَى في الملاءِ

فقالت: ها أَنا أَمَةٌ لربّي فأقبَلُ ما اتيتَ بلا إبَاء

فصدَّقتِ البشارةَ بابتهاجٍ وتمَّ بذاك قولُ الانبياء

ولم يُخْصَصْ بهذا الأمر إلَّا لمريمَ وهي أتقى الاتقياء

فشكرٌ للعلي المولى وفخرٌ بأُمّ النور والدةِ الضياء

فانَّ لنا بها في الارض مجدًا وما بين الملائكِ في السماء

فنحن الخلقُ كان بنا سقامٌ فاضحتْ مريمٌ سببَ الشِّفاء

أتتنا بالخلاص فأنقذتنا بذاك من الخطيئةِ والبلاء

وكان لآدمٍ من قبلُ وعدٌ فمَنَّ على يدَيْها بالوفاء

فأهدوها بلا مللٍ سلاماً جديدًا في الصباح وفي المساء

تولَّاها وليٌّ وهو يرجو شفاعتها غدًا عند القضاء

فترى من هذه الامثلة انَّ سليمان الغزّي كان مشبعاً من العلوم الدينيّة عارفاً معرفةً تامّة بعقائد الكنيسة وآدابها وتاريخها . وكان في وسعنا ان ننقل عنهُ قصائد كثيرة بهذا المعنى لولا خوف الاطالة المملّة . وفي ما ذكرنا ما يكفي لبيان فضلهِ كشاعر مُجيد على الرغم ممّا سوَّغ لنفسهِ من الاجازات الشعريَّة

﴿ تنبيه ﴾ حاول الاستاذ المغربي احد علماء دمشق تخطئتيا في جريدة الف باء بخصوص تنصُّر سليمان بن حسن الغزّي فنقول: انَّنا لم نُقدم على قولنا جزافاً بل لاسباب .

اوّلًا لان احد الذين بعثا منهُ اقدم نُسخة ديوان هذا الشاعر افادنا انّهُ يعرف بالتقليد تنصُّر ذاك الشاعر بعد اسلامهِ · ثانياً انّ اسم والد الشاعر «حسن» هو اسم شائع خصوصاً عند المسلمين · وان وُجد قليل من النصارى الذين عُرفوا بهِ · وثالثاً ما يحويهِ الديوان من الردّ على بعض مزاعم المسلمين كما روينا · ورابعاً استشهادهُ اي موتهُ في سبيل الدين ممّا يثبت ذلك وان اراد جناب الاستاذ ان يطّلع على صحّة الرواية فليطالب بها جناب عيسى افندي اسكندر المعلوف وهو راوٍ ثقة سبق الى ذكرها · خامساً بل نجد في سكوت النصارى عن تنصُّر سليمان الغزّي علّةً تثبت تنصُّرهُ اذ لم يجسر النصارى على الاعلان بهِ خوفاً من الدولة وتعصّب اهل دينهِ

٢ فخر الدين ابن مكانس

﴿اسمهُ ونسبهُ﴾ قال ابو المحاسن ابن تغري بردي في المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي (Ms de Paris, 2071, ff. 40v) : «هو عبد الرحمان بن عبد الرزّاق بن ابراهيم الرئيسُ فخر الدين ابو الفرج وقيل ابو الفضل ابن شمس الدين ابن علم الدين الشهير بابن مكانس القبطيّ المصري الحنفي الاديب الشاعر» · فمن لقبهِ والقاب اجدادهِ ترى ما كان لهُ من الشرف والاعتبار

﴿زمانهُ واعمالهُ﴾ قال ابو المحاسن في النجوم الزاهرة (éd. Popper ٧١) وفي المنهل الصافي (ibid.) · «كان مولدهُ بالقاهرة سنة خمس واربعين وسبعمائة (١٣٤٤م) ونشأ بها وتعانى قلمَ الديون وغلب عليهِ الادب حتى صار بارعاً فيه الى الغاية مع المشاركة الجيّدة في انواع الادبيّات · تولّى نظر الدولة بديار مصر مدّةً طويلة ثمّ صار وزيرًا بدمشق فباشرها مدّةً الى ان طُلب الى القاهرة ليستقرَّ بها وزيرًا فاسقى (فاستسقى ?) في الطريق فدخل القاهرة ميتاً وقيل مات بعد ايّام في ١٥ ذي الحجّة سنة ٧٩٤ﻫ (١٣٩٢م)»

﴿دينهُ﴾ وُلد فخر الدين ابن مكانس نصرانيًّا لكنّهُ أسلم رئاء ليس رغبةً في الاسلام او اقتناعاً بصحّتهِ بل طمعاً في الارتزاق وحبًّا بالمناصب الشرفيّة · ولسنا لنروي ذلك جزافاً بل اثباتاً للحقيقة التاريخيّة ولنا على قولنا اصدق شاهد في ما ذكرهُ

ابن تغري بردي في المنهل الصافي عن المقريزي قال ما حرفهُ الواحد : «قال المقريزي بعد ان أثنى على ادبهِ (اي ابن مكانس) وفضلهِ إِلّا انهُ كان لعراقة آبائهِ في النصرانيَّة يستخفُّ بالاسلام واهلهِ ويُخرج ذلك في اساليبَ من سخطهِ (سخفهِ) وهزلهِ . أخبرني محمَّد بن ابراهيم البشتكي وكان قد عاشرَهُ دهرًا طويلًا انهُ سمع المؤذّن يقول في إذانهِ : «واشهد انَّ محمَّدًا رسول الله» فقال : هذا محضرٌ لهُ ثمانمائة سنة نودي فيه للشهادة وما ثبتَ . ومات ولهُ عدَّة بنات نصارى . عاملهُ الله بما يستحقُّهُ» انتهى كلام المقريزي . قلتُ (القول لابن تغري بردي) : هذا شأن سائر اقباط مصر قديمًا وحديثًا إِلّا انَّ فخر الدين هذا كان انسلخ من ابناء جنسهِ بما اشتمل عليهِ من الفضيلة والادب والشعر الرائق » انتهى ما نقلناهُ عن المنهل الصافي وهو يؤيد ما قلناهُ عن النصارى الذين يعدلون الى الاسلام انهم انَّما يفعلون ذلك لغايات بشرية فيحقُّ لنا ان ننظمهم في سلك النصارى

﴿ادبُهُ وشعرهُ﴾ كان فخر الدين ابن مكانس من كبار المتأدّبين . ذكرهُ السيوطي في حسن المحاضرة في اخبار مصر والقاهرة (١ : ٣٣٠) قال عنهُ « انهُ كان وزير دمشق وناظر الدولة بمصر» وانهُ كان « احد فحول الشعراء ولهُ ديوان انشاء » الّا انهُ قد غلط بذكر وفاتهِ «سنة اربع وستين وثمانمائة» والصواب ما رويناهُ انهُ مات سنة ٧٩٤هـ . وقد جمع ابنهُ مجد الدين ديوان شعرهِ وانشائهِ منهُ نسخ خطيَّة في خزانة كتب باريس وبرلين ولندن وغوطا ومونيخ ومصر . وقد روينا لهُ في كتابنا مجاني الادب (٢ ع ١٠٩) منتخباً من ارجوزتهِ التي اوَّلها :

هل من فتًى ظريفِ مُعَاشرٍ لطيفِ
يسمعُ من مقالي ما يُرخصُ اللآلي

وهي طويلة وفيها يقول :

أُسلُكْ مع الناس الأَدَبْ ترى من الدهر العجَبْ
لِنْ لهمُ الخطابا واعتمدِ الآدابا
لا تُغضِبِ الجليسا لا توحِشِ الانيسا
لا تَصحَبِ الخسيسا لا تُسخطِ الرئيسا

وختمها بقوله:

فَهاكها وصيَّهْ تَصحبُها التحيَّهْ
تَحْملها الكرامُ اليك والسلامُ

وروى لهُ النواجي في حلبة الكميت (ص ٣٠٨—٣١٣) موشحاً طويلاً وصف فيهِ رياض القاهرة ومحاسنها فيقول منها (من الرجز):

باكرْ الى جزيرة الفيل(١) التي تختال في افنانها كالجنَّةِ
ولا تَمِلْ من وَجهِها لوِجهَةِ صِفْ حُسنَها لمائها والخُضرةِ
وقِفْ بشاطيها ولا تُعدّي

واجلس من المُنيقِ جَنْبَ الشاطي في فُرُش الروضِ على بساطِ
فهي من التدبيج في إفراطِ عروسةٌ تختال بالأقراطِ
ومن لآلئ نَورِها في عِقدِ

ومنها قولهُ في بئر البلسم في المطريَّة وهي البئر التي قدَّسها السيد المسيح فأنبتت البلسم قال:

وانظر الى انوارِ بئرِ البَلْسَمِ فهي سبيلُ صحَّتي من سَقَمي
لكونها فيما يقالُ تنتمي الى المسيح السيّد ابن مريمِ
مُحْيي بإِذْنِ اللهِ مَيْتَ اللَّحْدِ

بئرٌ لها التعظيمُ والجلالَهْ بدرٌ أنارتْ واستنارتْ هالَهْ
أُنموذجُ الفردوس لا محالَهْ فيها عن الجَنَّةِ أيْ دلالَهْ
تُذكِّرُ الناسَ نعيمَ الخُلْدِ

وقال يعاتب صديقاً اسمهُ سراج الدين الاسكندراني لهجرهِ الخلّان ويدعوهُ

١) جزيرة الفيل هي من جزائر نهر النيل قريباً من القاهرة دُعيت بذلك لانَّ مركباً كبيرًا كان يُعرف بالفيل انكسر في موضعها. قال المقريزي في الخطط (٢: ١٨٥) «وجزيرة الفيل هي الآن بلد كبير خارج باب البحر من القاهرة»

الى مجلس أُنس (من البسيط) :

يا ذا الذي فكرُهُ مثلُ اسمهِ يَقِدُ فَنُدتَ عنَّا وما من شأنك الفَنَدُ
بمَ اعتذارُكَ عن هذا الصدودِ لنا هذا وقد ضمَّنا بالجيرةِ البَلَدُ
عافاكَ ربُّكَ من داء القطيعةِ بل شفاكَ من داء أمرٍ كلُّهُ نَكَدُ
فيمَ التَّواني وشهرُ الصوم مقتبلٌ عن خمرة ضوؤُها في الكأس يتّقِدُ
وفتيةٍ مُخْلِصينَ الودَّ قد جُبِلُوا على المحبَّة لا حقدٌ ولا حسَدُ
ان ذاعَ وصفُكَ في ناديهم طَرِبوا او جالَ ذكرُكَ فيما بينهم سَجَدوا
اذا هجرتَ بني الآداب فأَبْدُ لنا بمَ اعتذارُكَ لا اهلٌ ولا وَلَدُ
ما هكذا تفعلُ الدنيا بصاحبها فالناسُ بالناس والاخوانُ تُفْتَقَدُ
وبعدُ فاحضُرْ وذَنْبُ البُعْدِ مغتفَرٌ وان تطاولَ من هجرانِكَ الأَمَدُ
لازلتَ ترقى على زهر النجوم عُلَى ما هبَّتِ الريحُ اقواماً وما رصدوا

ومن حُسن اوصافهِ قولهُ يصف دوحةً وارفة الاغصان على شاطئ النيل (من البسيط) :

يا سَرْحةَ الشاطىء المُنْسابِ كوثَرُهُ على اليواقيتِ في أَشكالِ حَصْباء
حلَّت عليكِ عَزالِيها السَّحابُ اذا نوءُ الثُّرَيَّا استهلَّت ذات أَنواء
وان تبسَّم فيكِ النَّوْرُ من جَذَلٍ سقاكِ من كلّ غيمٍ كلُّ بَكّاء

ومنها :

لن يُدرِكَ الطَّرْفُ أَقصاها على كَلَلٍ حتى تعودَ لهُ لَحظاتُ حَولاء
مالت على النهر اذ جاشَ الخريرُ بهِ كأَنَّها أُذُنٌ مالتْ لِإِصغاء
باكرتُها في سَراةٍ من أَصاحبنا لا ينطوونَ على حِقْدٍ وشَحْناء
تَداعبوا في معاني شعرهم فأَرَوْا ردَّ الاحبَّةِ في الفاظِ أعداء

ومن شعرهِ قولهُ يذكر ابنهُ فضل الله (من الطويل) :

أرى وَلَدي قد زادَهُ اللهُ بَهجةً وكَمَّلَهُ في الخَلق والخُلق مُذ نَشا
سأشكر ربّي حيثُ أُوتيتُ مثلَهُ وذلك فضلُ اللهِ يؤتيهِ مَن يشا

ولمّا تسلطنَ الملك الظاهر برقوق سلطنتهُ الثانية سنة ٧٩٢ (١٣٩٠م) غَضب على الصاحب فخر الدين ابن مكانس. قال ابن اياس (١ : ٢٩٣): «ضربهُ علقةً قويّةً. ثم علّقهُ من رجليهِ بسرياق (١ فاقام وهو منكوس على رأسهِ نصف نهار ثمَّ انَّ بعض الامراء شفع فيهِ فأنزلوهُ» فقال في هذه الواقعة (من البسيط):

وما عُلِّقتُ بالسرياقِ منتكساً لزلّةٍ (٢ اوجبتْ تعذيبَ ناسوتي
لكنّني مذ نفثتُ السِّحرَ من ادبي (٣ عُذِّبتُ تعذيبَ هاروتٍ وماروتِ

وقال يذكر يوم الحساب (من الكامل):

وا سَوءتاهُ اذا وقفتُ بموقفٍ ما يَنجلي فيهِ سوى الإقرارِ
وسوادُ وجهي عند اخذ صحيفتي وتَطلُّقي منها شبيهَ القاري

﴿ اخوهُ عبد الكريم ابن مكانس ﴾ أسلم كاخيهِ فخر الدين وتعيَّن قاضياً وذكرهُ ابن اياس في تاريخ السنة ٧٨٨ (١٣٨٦م) قال (١ : ٢٦٤) «وفيها طلع السلطان الظاهر برقوق على القاضي عبد الكريم ابن مكانس واستقرَّ بهِ في نظارة الجيش عوضاً عن موفّق الدين ابي الفرج الذي ضربهُ مائة وخمسين عصاً. ثمَّ قال (ص ٢٦٦) في تاريخ سنة ٧٨٩ (١٣٨٧م):

«وفي ربيع الاوَّل جرت واقعة غريبة وهي انَّ السلطان دخل الى القصر الكبير في غير يوم الموكب. فلمّا جلس بالشبّاك رأى خيمةً على بُعدٍ مضروبة في الروضة على شاطئ النيل فبعثَ مَن كشف عن خبرها. فلمّا عاد القاصد اخبر السلطان انَّ بتلك الخيمة كريم الدين الصاحب ابن مكانس ومعهُ جماعة وهم يشربون الخمر. فارسل اليهم جماعةً من المماليك فاحضروهم بتمامهم وكمالهم بين يدي السلطان فأمر بضرب الصاحب كريم الدين بالمقارع وقرَّر عليهِ خمسين الف دينار وعفا عن الباقين. وهذا من الغرائب»

١) لم نجد للسرياق ذكرًا في كلّ المعاجم العربيَّة ولعلَّها التركية «صريق» وهي خشبة كبيرة كانوا يعلّقون عليها المجرمين يدعوها الفرنج «pilori»

٢) ويروى: لجرمة

٣) ويروى: من غزلي

وفي ذكر هذه الرواية ما يريبنا عن صحة اسلام كريم الدين ابن مكانس كاخيهِ فخر الدين . ولم نقف على تاريخ وفاتهِ

﴿ابنهُ مجد الدين ابن مكانس﴾ هو ابن فخر الدين الذي سبق ذكرهُ قال ابو المحاسن بن تغري بردي في تاريخ سنة ٨٢٢ (١٤١٩م) يذكر وفاتهُ : « وتوفي الاديب الفاضل مجد الدين فضل الله ابن الوزير الاديب فخر الدين عبد الرحمان بن عبد الرزّاق ابن ابرهيم بن مكانس القبطيّ الحنفي الشاعر المشهور في يوم الأحد خامس عشرين شهر ربيع الآخر . ومولدهُ في شعبان سنة تسع وستين وسبعمائة (١٣٦٨م) ونشأ تحت كنف والدهِ وعنهُ اخذ الأدب وتفقّه على مذهب ابي حنيفة رض وقرأ النحو واللغة وبرع في الادب وكتب في الانشاء مدّةً وكانت لهُ ترسُّلات بديعة ونظمٌ رائق ومن شعرهِ قولهُ (من الوافر) :

بحقّ اللهِ دَعْ ظُلْمَ الْمعَنّى ... ومَتّعْهُ كما يَهْوى بأُنسِكْ
وكيفَ الصدُّ يا مولايَ عمَّنْ ... بيومكَ رُحتَ تهجُرهُ وأَمسِكْ

ولهُ في محاسن روضٍ (من الوافر) :

تَساوَمْنا شذا ازهـار روضٍ ... تحيَّرَ ناظري فيـهِ وفِكْري
فقلتُ نبيعُكَ الأرْواحَ حقًّا ... بعَرْفٍ طَيّبٍ منـهُ ونَشْري

وقال يمدح الشيبَ لبعثهِ على التوبة (من الطويل) :

جزى اللهُ شيبي كلَّ خَيرٍ فـانَّهُ ... دعاني لما يُرْضي الإلهَ وحرَّضـا
فأقْلَعتُ عن ذَنبي وأخلصتُ تائباً ... وأمسكتُ لمّا لاح لي الخَيطُ أبيضا

ولمجد الدين ديوان شعر منهُ نسخة في مكتبة برلين . وقد ذكرهُ السيوطي في كتاب حسن المحاضرة فقال عنهُ : « تعانى الادبيَّات ومهر ومات بالطاعون »

٣ شاكر بن ريشه القبطي

هو ايضاً كما يظهر من اسمهِ ونسبهِ من نصارى الاقباط المرتدّين الى الاسلام لطمع في النفس كما رأيت في فخر الدين بن مكانس . وغاية ما وقفنا عليهِ من ترجمة حياتهِ ما ورد في كتاب ابن حَجَر العسقلاني المعنون بالدرر الكامنة في اعيان المائة الثامنة (Ms. du British Museum Suppl. 613-4,) قال : «هو شاكر بن ريشه القبطي الوزير تاج الدين وُلي نظر الخاص بعد مَقْتَل صرغتمش (١) وولي الوزارة بعد ابن الخصيب وكان يتعانى الآداب وينظم الشعر مات سنة ٧٦٥هـ (١٣٦٤م)»

ولم نقف على شيء من شعرهِ . وقد ذكر ابو المحاسن بن تغري بردي في المستوفي بعد الوافي (Ms de Paris, I, ff. 31r) اخاهُ عبدالله . قال : « عبدالله بن ريشه امين الدولة القبطي الأَسلمي ناظر الدولة . كان المذكور من اعيان الكتبة الاقباط وباشر في عدَّة خدم بالطالع والنازل (كذا) حتى وَليَ نظر الدولة واستمرّ الى ان توفي في ليلة الاربعاء سادس جمادى الاولى سنة ٧٩٠ (١٣٨٨ م) »

٤ يوسف بن رزق الله الموقّع

كان ايضاً من اقباط مصر الاسلَميين . ذكرهُ ابن حجر العسقلاني في الدُّرَر الكامنة (ibid l. c.) قال : « يوسف بن رزق الله الموقّع جمال الدين ابن اخت شرف الدين بن فضل الله باشر التوقيع بصفد وبغزَّة قبلها وكان لهُ كرم ومروَّة ولهُ نظمٌ وسَط وعُمر طويلًا لعلَّهُ قارب التسعين وثَقُل سمعهُ لكنَّ حواسَّهُ كلها صحيحة وهمّتهُ همّة ابن ثلثين وهو يباشر التوقيع في صفد سنة ٧٤٤ (١٣٤٣ م)

١) كان احد كبار الامراء في خدمة الملك الصالح صلاح الدين ابن الملك الناصر حسن . قال ابن اياس في كتاب تاريخ مصر في تاريخ سنة ٧٥٥ عند عودة الملك الى السلطنة : « وصار الامير شيخو والامير صرغتمش في دولة الناصر حسن صاحبي الحلّ والعقد ومدبّري المملكة» ثم قال في تاريخ سنة ٧٥٨هـ (١٣٥٧ م) انَّ الامير صرغتمش ترايدت عظمتهُ فصار في رتبة الاتابكي . ثمَّ قبض عليهِ السلطان وحبسهُ فمات في حبسهِ سنة ٧٦١هـ (١٣٦٠م)

٥ ابن القلاعي

﴿خلاصة اخباره﴾ هو جبرائيل بن بطرس الماروني الشهير بابن القلاعي ولد في لبنان في اواسط القرن الخامس عشر وتاقت نفسهُ الى العلم منذ نعومة اظفاره لكنَّ حالة لبنان في ذلك العهد لم تسمح لهُ بغير معرفة مبادئ القراءة والكتابة. ثمَّ زهد في الدنيا بعد ان اختبر قلَّة هنائها. وا تَّصل بالمرسل الفرنسيسي رسول لبنان فرا غريفون فارسلهُ الى ديرهم العامر في القدس الشريف . فما لبث ان طلب الانضمام الى رهبانيَّة القديس فرنسيس فأُرسل الى رومية سنة ١٤٧١ مع رفيق من وطنهِ يُدعى يوحنَّا . فانكبَّا هناك على العلوم الادبيَّة والدينيَّة حتى اتقناها ورُقيا الى درجة الكهنوت .

وفي السنة ١٤٩٣ أبحرا قافلَين الى اوطانهما . لكنَّ مركبهما الشراعي أُصيب بانواء هائلة هلك بسببها غرقاً رفيق ابن القلاعيّ ونجا هو بنعمةٍ خاصَّة من الله فاخذ يتعاطى في وطنهِ كلَّ اعمال الرسالة ليثبّت اهل جلدتهِ في ايمانهم ويردَّ غارات اليعاقبة الذي كانوا ساعين في تضليل اللبنانيين وزرع زؤان تعاليمهم في الجبل. فتصدَّى لهم وفنَّد اضاليلهم وصان مواطنيهِ من فسادهم وقرَّر امام رؤساء طائفتهِ دوام اتّحاد الموارنة مع الكرسي الرسولي .

وفي السنة ١٤٩٦ أُقيم ابن القلاعي رئيساً على دير رهبانهِ في قبرس فسكن في مدينة افقسيَّة (او نيقوسية) في دير الصليب وعُني بامور اهل المدينة بكل غيرة ولاسيما بالموارنة المهاجرين الى قبرس. ولمَّا توفي اسقف قبرس الماروني يوسف الكيزفانه سنة ١٥٠٧ طلب الموارنة ان يقام خلفاً لهُ على كرسيّ قبرس مُواطنُهم ابن القلاعي فاجاب الرؤساء الى طلبهم فسُقِّف المذكور وساس رعيَّتهُ احسن سياسة الى آخر حياتهِ فانتقل الى رحمة ربّهِ سنة ١٥١٦

﴿علومهُ وآدابهُ﴾ هو اوَّل كاتب مارونيّ اشتهر بتآليفهِ التي عدَّدها البطريرك الدويهيّ في تاريخ الطائفة المارونيَّة (ص١٥٣—١٥٤). فمن اخصّ مصنَّفاتهِ مقالات في التعاليم المسيحيَّة وفي اسرار البيعة وفي الطقوس وتفنيد الهرطقات وفي الحقّ القانوني الماروني مع خمسين موعظة في اخصّ المعتقدات الكاثوليكيَّة وتراجم قديسين

﴿الشاعر﴾ كان جبرائيل ابن القلاعي شاعرًا فطريًّا لم يعرف من العروض والاوزان الّا ما ارشدتهُ اليهِ الطبيعة وما سمعهُ في وطنهِ لبنان من الاغاني العامّيَّة او المنظومات البيعيَّة السريانيّة . فعلى هذا الاساس بنى زجليَّاتهِ التي خلّف منها شيئاً كثيرًا . فاذا قستها بالشعر الموزون والكلام الفصيح نفرتَ منها وانّما كانت العامَّة تستحسنها وتتغنى بها وبالخصوص لِما كانوا يجدون فيها من ذكر حوادث الاجداد وحروبهم ومن التعاليم الدينيَّة والادبيَّة ومن قصص الشهداء والقدّيسين ولاسيما من سيرة السيد المسيح ووالدتهِ الطاهرة . وقد برع ابن القلاعي في كل ذلك فكان لاناشيدهِ وزجليَّاتهِ تأثير كبير في قلوب ابناء طائفتهِ ولعلَّها كانت من اقوى العوامل لحفظ اهل ملَّتهِ في دينهم المستقيم ولصيانتهم من وباء الاضاليل

وها نحن نذكر شيئاً من زجليَّاتهِ ليقف القرَّاء على طريقتهِ النظميَّة . وقد سبق لهُ في المشرق (١٨ [١٩٢٠]: ٢٠٠ـــ٢٥٦) مناحة او مرثاة قالها لمّا غرق رفيقهُ « الاب يوحنّا اوجوان الراهب الفرنسيسي الماروني» ونشرها حضرة المنسنيور جرجس منش ومما جاء فيها قولهُ :

باب الفراج يا حبيبي بالحقّ درب الخلاصْ
تركتني في التجاريبِ وانت ذقت المغاصْ (١)
ما كُونّا تنينا (٢) اخوهْ زيّ الطيور بالقفاصْ
لماذا تخيّب نصيبي من سكنة لجج البحارْ؟

ومنها : يا حوت ابلَعْتْ يونانْ رابع يوم اخرجتهُ صحيحْ
وصار نبي صادقْ عن قبر يسوع المسيحْ
اجعل اخي مثل يونان في وسط بطنك يستريح
واخرجْهُ منهُ زي يونان يكرز بما قد اختبارْ (٣)

١) يريد بالمغاص على ظنّنا غوصةُ اي غرقةُ في البحر
٢) هذا على لفظ العامّ يريد كنّا اثنينا ٣) يريد بما اختبَرَ وتعلّم

طوباك يا كاهن الله لأنك اقتبلت الكليل
من اجل الطاعة استحقّيت تسلك طريق الجليل
طوبى لأُمك غنيّه (١ الذي ربّتك يا فضيل
قربان تقدّمت مقبول صالح وحسن الثمار

وهذا مثال آخر قالهُ في ما جرى للسيد المسيح عند موتهِ :

وقال يسوع: الروح اسلّمك يا ابي وقد احتنى رأسهُ وصار كالنائما
بساعة انفلق الصخر في وقت موته واظلمت الدنيا وصار التهدّما
والشمس انكسفت بغير وقتها حتى القمار اظلم في وقته معتّما
واتزعزعوا الأَمواتَ جوًّا قبورهم وليس عاد نجوم تزهر في السما
وصار الظلام من السادسة للتاسعة على سائر الاقطار مسودّ مظلما
نظر المقدّم ذي العجائب كلّها ودقّ على صدره وخفْ وتوهّما
وقال : ابن الله كان هذا صالحاً جميع اليهود هربوا بخوف وتقمقما
قالون لبيلاطوس : تشيله عن الصليب لانّ غدا السبت يوماً معظّما
وقال لهم : اكسروا رجليهم حتى يموتوا واحفروا قبرهما
كَسْرون رجلين اللصوص اثنينهم ويسوع وجدوه ميّت زي نائما
ليس كَسْرون رجليه لكن بحربه طعنوهُ في جنبهِ خرج دماً وما
لونجين كان اسمهُ الذي طعن المسيح وكانت اعيانهُ تغشّت بالعما
ولمّا شكب الدم على عود حربتهِ وضعهُ على عينيهِ بنور اسرجها
وصاح يقول : انا بيسوع مؤمناً تشهّد على اسمهُ وصار مكرّما

ولهُ زجليّة مطوّلة في تاريخ لبنان وعن اصل الطائفة المارونيّة وفيها يقول:

نرجع نخبر عن مارون كان عالم بما في القانون

١) غنيّه اسمُ والدتهِ على ما يظهر

من انطاكيـة ابوه اغاتونْ مطران مع السريان قد صارْ

جـاء لطرابلس وتـكلَّمْ مع الكردينال وعليه سلَّمْ
لقاه شاطرْ فاهمْ معلِّمْ اخذه معهُ في الابحارْ

قال للبـابا اخبـارُه وثبَّت قولُـه واسرارُه
رسمه بطركْ واعطـا لُهْ درْعاً واوصاه يتحـذَّرْ

قال لهُ تجنَّب الملكيّه واليعاقبـة والقبطيّـه
جبل لبنان يكون لك رعيّه في كفرحيّ مات ذا المختارْ

ومنها وصفهُ للحركة اليعقوبيَّة في لبنان بعد ذكرهِ «لعبد المنعم اليعقوبي الذي مات موتة لا دين ولا ايمان» قال يذكر ابن شعبان :

البطركْ كان في قنُّوبينْ وابن شعبان في حردينْ
جـا يخـدع المسيحيّين منهُ تنسَّل ثلاث طغيـانْ

ومن اصله كان رومي وبعد ذلك صار ماروني
جاء اليـه داسوس ملعوني يدعى عيسى باسم مطرانْ

ابن شعبان مع جماعة حردينْ وصاروا في زيّ الشيـاطينْ
واطغا العدماء والمنقطعينْ يعلّمون البنـات مع الصبيانْ

ويصلّبون بواحد صابعْ وينكروا مجمع الرابـعْ
وبابا لاون السابع (١ وملك الارثودكسي مرقيانْ

ومارون صار ملبوكْ معهم وكلّ عـديم كان يتبعهم

١) والصواب القديس لاون الاوَّل المعروف بالكبير الذي ثبَّت المجمع الخلقيدوني ضد القائلين بالطبيعة الواحدة في المسيح.

والافعى المسمّه تلذعهم ولا كان يفزع من النيرانْ

مات الافعى وقام ابنُه وفي الطغيان انحس منه

عن الايمان قد ضـاع ظنُّه وراد يحرق لمن ينهـانْ

فترى من هذه الامثلة ما تميَّز بهِ اوّل قوّال لبنانيّ صبرت زجليّاتهُ على افـات الزمان فلهجتهُ تُشعر بقرب عهد اللبنانيّين بالتكلّم بالعربيَّة مع آثار اللغة السريانيَّة الشائعة بينهم

٦ ابراهيم الانطاكي

﴿اخبارهُ وشعرهُ﴾ هو ابراهيم الانطـاكي ثمَّ الحلبي المعروف بأُصطا ابراهيم الحامي النصراني. قال محمَّد بن ابراهيم الحلبي المتوفي سنة ٩٧٢ للهجرة (١٥٦٣ م) في كتابهِ درّ الحَبَب في تاريخ حلب (Flügel, *Ms. de Vienne*, ff. 11^v) : كان شاعرًا ذا ذكاء وذوق مع كونهِ عامّيًا ولهُ موشّحات وتصـانيف واعمال موسيقيـة مشهورة على لحنٍ فيها وديوان حافل سمّاه « برهان البرهان». ثمّ ذكر شيئًا من شعره وختم بقولهِ : توفي ليلة عيد الفطر سنة ستّ وعشرين وتسعمائة (١٥٢٠م) :

من شعرهِ موشّح قال فيهِ :

باكرْ يا صاحْ لرشف قدَحْ فالكاسُ زنا دَ الخمْر قَدَحْ

واشرب قدحاً وانفِ تَرَحـاً وأْجنَحْ مَرَحاً وأْلمح لِمـلَحْ

بكِّرْ في الكأْ سِ اذا جُلِيَتْ بالبسط اكا دُ أطيرُ فرَحْ

تنفي الاحزا نَ بساحتهـا وبنَشْوتـهـا كم شحٍّ سَمَحْ

في شرح معا ني بَهْجتهـا قدحٌ منهـا للصدر شَرَحْ

تنفي الاسقامْ من الاجسامْ بها ما هـامْ وراحَ نصَحْ

واشرع في صبـــح غبـقتهـا فالديك على م الندمان صدح
والوقتُ صفا والحبّ وفى والكاسُ شفى والهمُّ سرح
والجوُّ خـلا والبدرُ جـلا والطَّيرُ تسلا والكاسُ طفح

الى ان قال :

ما زلتُ مسا ئي مغتبقاً في الحضرةِ حــتى الصُّبحُ وضح
من عظم سرو ري في فرحي ايقنتُ بانَّ م العقـلَ شطح

وهو القائل في وداع احباب (من الرمل):

مُقلتي يوم النوى اذ رحلوا خلَّفتْ من أجلهم طيبَ الـكرى
ان تسَلْ عمـّا جرى من ادمعي فوق خدّي بعـدهم يا مـا جرى

وقال في معناهُ (من الرجز):

أَحبابَنا من بعد كم اجريتُمُ مـدامِعي
مَن لي معيناً في الهوى يبقى على المَذى معي

وقال في وصف غلام (من الطويل) :

ولي رشأ حازَ الجمالَ بأسرهِ لهُ طلعةٌ فاقتْ على شفَق الفجرِ
تحيَّرَ فيهِ الواصفون لحسنهِ وقالوا: عجزْنا عنهُ بالفكرِ والذكرِ
فقلتُ لهم: هذا الذي صحَّ انَّهُ كما شاعتِ الاخبارُ في البرّ والبحرِ
ترآى ومرآةُ السماء صقيلةٌ فأثّر فيها وجهُـهُ صورةَ البدْرِ

ولهُ في آخر (من الرجز) :

مُهَفْهَفٌ من لطفهِ اعطَافُـهُ ترنَّحت وخدُّهُ لشقوتي وَرْدُتهُ تفتَّحت

وقال يهجو بعض الامراء وفيهِ نوع الاكتفاء (من المجتثّ):

اميرُنا ذو معانٍ محرِّكاتِ السَّواكنْ
حَلا حلاوةَ لفظٍ حلو اللسان ولكنْ...

وقال يهجو صوفيًّا (من البسيط):

للهِ صُوفيٌّ وقتٍ حاز اربعةً لاحت لنا من معانيها عبـاراتُ
دقنٌ ودِلفٌ وعكّازٌ ومسبحـةٌ دكّانُ زوكرةٍ فيها فشاراتُ

٧ عيسى الهزار القوّال

﴿اصلهُ . زمانهُ . ملّتهُ﴾ كان اوَّل من ألفتَ نظرَنا الى عيسى الهزار السيد المرحوم عبد يشوع الخيّاط بطريرك الكلدان في سنة ١٩٠٤ فذكر عنهُ انهُ كان قسّيساً ورجّح كونهُ عاش في اواخر القرن الثامن عشر وحكى عنهُ انهُ في ليلةٍ تغنَّى على السطوح باغاني روحيَّة فحنق عليهِ بعض اعدائهِ فارادوا لـهُ سوءًا فهرب من وجههم مختفياً وكان ذلك آخر العهد بهِ . (قال) ولعلَّهُ ذهب الى القدس وهناك قضى عمرهُ . وشكّ الكاتب في ملّتهِ أكان من طائفة الكلدان ام من السريان وانما أثبت كونهُ من الموصل

ثمَّ وردتنا في السنة ١٩٠٦ مجلّة الشرق المسيحي (Revue de l'Orient Chrétien) واذا في عددها الثالث (ص ٢٥١—٢٧٣) مقالـة مطوَّلة نشرهـا المستشرق الاسباني الكاهن مخائيل اسين بلاسيوس (Miguel Asin Palacios) استـاذ العربيَّة في مدريد مضمونها قصائد روحيَّة باللغة العامّيَّة للقوّال عيسى الهزار نقلها عن مخطوطة للعلّامة الكبير فرنسيسكو كوديرا (Fr. Codera) مواطنهِ يؤخذ منها انَّ اسمهُ كان فارساً ثمَّ اشتهر بعيسى ولعلَّهُ اتَّخذ هذا الاسم الاخير لمّا صار كاهناً . وامّا كونهُ كان يسمَّى فارساً فالدليل عليهِ ما قالهُ في آخر انشودةٍ من اناشيده

فارس قد نظم هذا المديحْ في العذرا البتول امّ المسيحْ

وامّا اسمهُ «عيسى الهزار» فقد كرَّرهُ مرارًا في خاتمة قصائده كقولهِ :

انــا هو عيسى الهزارْ ونظمي في الملا سُكَّرْ

ويقول في محلّ آخر مخاطباً العذراء مريم :

يا درّة داوُد يا شمس الحلولْ عيسى الهزار فيكِ يمدح ويقولْ

ويروي ايضاً في نظمهِ انهُ من طائفة السريان كقولهِ في مديح آخر للبتول :

وكيف لا امدحها ألْوانْ وانا من جمـلة السريـانْ

امّا وطنهُ فيستفاد من اناشيدهِ انهُ كان من نصارى العجم وانهُ قدم من بـلاده الى القدس الشريف حيث يقول :

« الى القدس الشريف ارحَلُ من بلاد العجمْ »

ويدلّ اسمهُ «الهزار» على اصلهِ العجمي والهزار بالفارسيَّة البلبل ولذلك دعـا ايضاً نفسهُ «بعيسى هزار الشرقيّ»

وممَّا افادتنا هذه المنظومات المنشورة في مجلّـة الشرق المسيحي انَّ عيسى هزار تجوَّل في انحاء الشام وزار صيدنايا ووصفَ كنائسها وصورتها الشهيرة . لا بل امتزج بطائفة الروم المتملّـكين عليها فمدح بطريركهم المسمّى يواكيم :

يا ربّ بالبكر مريمْ احفظ لنـا ذا المعلّمْ
انبا يواكـيم ابينـا البطريرك المـكرّمْ

ولعلَّهُ وهو سرياني كما سبق قولهُ عدَلَ الى طائفة الروم الملكيين ولذلك دعـا البطريرك يواكيم بأبيهِ

ويدلّ على عدوله هذا الى الملكيَّة ما عدا قصائدهُ في مزار البتول في صيـدنايا زجليَّةٌ طويلة قالها في السيّد المسيح وختم كلّ ادوارها بهذه الالفاظ اليونانيَّة «اجيوس اوثاوس اجيوس ايسخيروس اجيوس اثاناطوس» اي قدُّوس الله قـدّوس القويّ قدُّوس الحيّ

فبقي علينا تعريف زمانهِ . وذلك ممَّا يستدل عليهِ من النسخة الخطّيَّة التي نقل عنها حضرة اسين پلاسيوس حيث قال انَّ ورقها يشعر بكونها من القرن السادس عشر واوائل السابع عشر

ثمَّ دخلتْ في مكتبتنا الشرقيَّة مجموعةٌ قديمة من اناشيد لعدَّة قوّالين تؤيد هذا الرأي ولا يبعد كونها من اوائل القرن السابع عشر

وقد كتب لنا الطيّب الذكر المرحوم السيّد بطرس شبلي رئيس اساقفة بيروت سنة ١٩٠٧ انهُ وجد في قائمة مخطوطات الڤاتيكان التي ألَّفها السمعاني فنُشرت في تأليف الكردينال ماي (Mai : Scriptorum Veterum Nova Collectio, t, IV, p. 591. Cod. DCLXXXII) ذِكرَ مجموعٍ مخطوط تاريخ كتابتهِ سنة ١٨٦٨ لليونان الموافقة للسنة ١٥٥٧ للمسيح فيهِ عدَّة قصائد لعيسى هزار . ومن ثمَّ يترتَّب على ذلك انهُ كان في اواسط القرن السادس عشر . ومن هذا ايضاً نستنتج انَّ البطريرك يواكيم الذي اشار اليهِ هو يواكيم المعروف بابن زياده كان مطراناً على حمص ثمَّ صار بطريركاً ملكيًّا نحو السنة ١٥٩٣ وتولى البطريركيَّة ١١ سنة(١) . فيكون اذن عيسى الهزار عاش الى اواخر القرن السادس عشر

﴿منظوماتهُ﴾ هي كلّها مدائح وزجليَّات على طريقة العامَّة على اوزان وادوارٍ وقوافٍ خاصَّة . نشر منها حضرة الكاهن اسين پلاسيوس عدَّة امثلة نقلنا شيئاً منها في المشرق (٩ [١٩٠٦] : ١٧٠٨ــ ١١٠٤) . وفي مخطوط مكتبتنا الشرقيَّة الذي اشرنا اليهِ خمسُ زجليَّات لعيسى هزار في اوَّل هذا المجموع (ص ١ــ ٢٥) امَّا موضوع هذه الزجليَّات فعظمها مدائح قالها في العذراء مريم والسيّد المسيح . دونك شيئاً من مديحتهِ في قيامة المسيح :

بلَّغني المسيح آمالي وغيرُهُ مخلّص ما لي
في يوم القيامه ذخري هو كَسْبي وهو راس مالي

سيّدنا يسوع الباقي في يوم القيامه ديَّانْ

---

١) كان حضرة الخوري قسطنطين باشا ظنَّ أنهُ اشار عيسى هزار الى يواكيم ضو (المشرق ١٠ [١٩٩٧] : ٢٨٧-٢٨٨) والصواب يواكيم زياده الذي سبق عهد البطريرك يواكيم ضو

في حبّه بحور اشواقي ماجت مثل موج الطوفان
في اعلى المراتب باقي وسرّهُ سرى في الاكوان
مدحُ ابن البتول العالي ودينُه العزيز الغالي
وامُّهُ عدّتي في حشري تخفّف جميع اثقالي
هو النجم العظيم الزاهرْ من قبرهِ تفيض الانوارْ
ودينُهُ الشريف الطاهرْ كمّل دين موسى المختارْ
ودعانا بنين القادرْ وآمرنا بشدّ الزنّارْ
ذكرُه في الملا يُحْلي لي واصلح جميع احوالي
فأُفني في مديحه عمري وارجوهُ في غدٍ يَبقى لي

ومن اقوالهِ في العذراء مريم (على وزن يا من احرموني لذيذ المنام):

في العذرا النقيَّة يروقْ النظامْ خلوص البريّه وشمس الانامْ
الدرّه المضيَّةْ مصباح الظلامْ في الموقف شفاعه منها ارتجي
هي الستّ المطاعه اليها التجي
ما احلى ذكر مريمْ في وسط القلوبْ منها تجسَّمْ ديّان الشعوبْ
يسوع المعظَّمْ غفّار الذنوبْ في يوم القيامه اليها التجي
هي النور والحمايه والصوت الشجي

وهي طويلة وفي ما ذكرنا دليل على براعتهِ في هذا الفنّ فضلاً عن عواطفهِ الدينيّة الشريفة ومعانيهِ الرقيقة اللطيفة

٨ ميخائيل حاتم القوَّال

﴿زمانهُ طائفتهُ﴾ هو الشيخ ميخائيل بن حاتم الحمصي. ولد في حمص في اواخر القرن السادس عشر واشتهر في القرن السابع عشر. فكان معاصرًا لعيسى المزار وتأخر بعدهُ وهو من الطائفة الروم الملكيَّة قبل انقسام الملكيين الى اورثذكس وكاثوليك. وفي بعض زجليَّاتهِ يذكر وجوده في مصر. ولهُ فيها مديح قالهُ في البطريرك كيرلُس بابا الاسكندريَّة اراد بهِ كيرلس الشهير بلوكاريس(C. Lucaris) الذي نال بالرشوة الجلوس على كرسي الروم الملكيين في الاسكندريَّة نحو السنة ١٦٠٠ قبل ان ينتقل الى كرسي القسطنطينيَّة سنة ١٦٢١ حيث نشر تعاليم البدعة البروتستانيَّة فقام عليهِ اهل ملَّتهِ فنُفي الى جزيرة تنيدوس ثمَّ قُتل سنة ١٦٣٦

ويؤخذ من شعر ميخائيل حاتم ايضاً انهُ سكن الشام ومدح القديس يوحنا الدمشقي وزار صيدنايا ووصف معبدها الشهير وصورتها العجائبيَّة. ولا نعرف سنة وفاتهِ. ولعلَّهُ عاش الى اواخر القرن السابع عشر. ولم يذكرهُ احد كتبة الروم

وقد دلَّ على زمانهِ في احدى صفحات ديوانهِ (ص٩٩) المؤرخة في اذار من السنة الهجريَّة ١٠٢٨ (١٦١٩ م). وقد ختم زجليَّة اخرى من منظوماتهِ بتاريخ العالم ٧١١٠ وهي ١٦٠٢ مسيحيَّة

﴿ديوانهُ وشعرهُ﴾ في مكتبتنا الشرقيَّة نسخة فريدة من ديوان ميخائيل حاتم تبلغ ٤٣٦ صفحة من القطع المتوسط وهي بخطّ يدهِ كُتب في رأس اوَّل صفحة منها:

« نبتدئ بعون الله تعالى بكتابة مدائح لطيفة واشعار في سيدنا يسوع المسيح وسيدتنا الطاهرة مريم وهو من ديوان الشيخ المعلم ميخائيل ابن حاتم الحمصي وهو خطهُ بيدهِ »

والتاريخ كما رأيتُ في السنة ١٦١٩ مسيحيَّة اثبتهُ في آخر زجليَّة طويلة في مديح العذراء مريم كما يلي (ص ٩٧):

يا مريم عبدكِ ميخال حاتم حارْ	في وصف معنى مديحك عاملي حارْ
وقت الضُّحى والمسا والليل والاسحارْ	مراصد المديح كالطلسم والاسحارْ
حسن الرقم في نهار السعد من آذارْ	برج الحمل انتقال الشمس منها دارْ

اوّل ربيع اتّفق لي بالقمر ابدارْ   تاريخ يوم الاحد ذو الشرق بالجندارْ

سنة ١٠٢٨هـ (١٦١٩)

هذا الديوان يحتوي على نيّف ومئة قصيدة من الزجليّات المختلفة الوزن على كل فنون الزجليّات يلقيها الشاعر عفوًا لا يراعي فيهــا شيئاً من قواعد اللغــة شأن معظم القوّالين الذين يجرون على انغام المغنّين . وميخائيل حاتم في اوّل كل زجليّة يــدلّ على اوزانها المعروفة في زمانهِ بين العامّة كقولهِ مثلًا (ص ١٥٩) «على وزن : يا كثير العفو يا عظيم الشان» وقولهِ (ص ١٨٣) : على وزن «ألا يا وردة البحر» وقولهِ (ص ٢٣٩) : على وزن «يا عزيز القوم قلّي» وهلمّ جرًّا . ولعلّ معظم هذه الاوزان القديمة قــد أُلغي ونُسي والله اعلم . دونك بعض امثلة من اقوالهِ . قال يعارض احد اقرانهِ على وزن : « جفاني صاحبي وارسل يقلّي »

المطلع

رجــائي فيــك يا يسوعُ وافرْ   بما انّك على الاشياء قادرْ

باسمك ابتدي بالنظم جهدي   وأُعارض في قريضي نَظْمَ ضِدّي
تقبَّل يا يسوع الحيّ نشّدي   واجــعلني لــقول الحقّ ناشرْ

أَما انت المشرّفُ بالاسامي   أَما أَنتَ المجَّد في الانامِ
أَمــا انت المنوِّرُ للظــلامِ   امــا انت لنــا اوّلْ وآخرْ

أَما انت الذي رفع التــلالا   أَما انت الذي أَرسى الجبالا
اما انت الذي حاز الـكمالا   اما انت الذي بالحق قادرْ

نعَمْ انت الذي كوَّنتَ عالَمْ   كما انت الــذي صوَّرت آدمْ
وانت الذي ابدعت ما لَمْ   يَكنْ اذ صرتَ لهُ ناهي وآمِرْ

نعم انت الذي زان الـكواكِبْ   كما انت الــذي للعرش راكِبْ

وانت الذي للغَيْث ساكبْ على زَرْع الثرى مع كلّ زاهرْ

نعم انت المُسَبَّحُ بالملائكْ كما تملكُ في اعلى سمائكْ
وانت الذي للكلّ مالكْ وحكمُكَ منصفٌ ليس بجائرْ

فهذا هو الذي للناس كلّمْ وهذا هو الذي منّا تجسّمْ
في يوم حلولهِ احشاءَ مريمْ وفي تأنّسهِ دقّتْ بشائرْ

وقال مستعطفاً على وزن «مضى لي سنين مع الهالكين»:

يا من لا ينامْ يا زين الأنامْ رمتْني الآثامْ في حال السقيمْ
انهضْني لديكْ واتكلْني عليكْ واجذبني اليكْ جَذباً مستقيمْ
يا كنز الصلاحْ يا عين الفلاحْ ألقاني الطّلاحْ في الفعل الوخيمْ
انضَحْني بمائكْ من اعلى سمائكْ واذكر في حمائكْ ضعفي يا كريمْ
غِثْني يا مسيحْ من داء جريحْ رماني طريحْ في الليل البَهيمْ
يا نور الظلامْ يا ربّ السلامْ صُنّي من ملامْ ابناء الجحيمْ
أَمهلني أُنيبْ قبل أن أشيبْ بنعمة الصليبْ والأُمّ الرحيمْ
هي امل نسلها ونعمة نَجْلها نسأل بفضلها فردوس النعيمْ
فيها احتسَبْ منها اكتسَبْ حاتمُ النسبْ ميخال الاثيمْ

ولهُ زجليَّة طويلة في عدَّة صفحات يزجر فيها نفسهُ ويحضّها على التوبة منها قولهُ:

يا نفس غير الله لا تقصدي يا نفس دونهُ خلًّا ما توجدي
يا نفس ان خدمتهِ تسعدي يانفس هو الكفوء وذو الفضل العجيبْ

يا نفس ذي الدنيا محلٌّ حقيرْ يا نفس من يعشقها يُصبح أسيرْ

يا نفس افراحها عِبْ ونيرْ يا نفس بحبّ الله تُشفى القلوبْ

يا نفس مولاكِ عزيز الجلالْ يا نفس اوصالكِ بحسن الخصالْ

يا نفس ايّاكِ سبيلَ الضلالْ يا نفس انّ الجاري فيهِ كئيبْ

حَسبُك بهذا القليل مثال يبيّن طريقة ميخائيل حاتم في منظوماتهِ الزجليَّة . وهي مع ضعف لغتها لا تخلو من معانٍ بليغة وعواطف شريفة يبرزها بكل اوزان الشعر العامّي . ويشفع فيهِ انهُ كان ينظمها في زمان اصبحت العربيَّة في غاية الخمول في الشرق العربي بعد تولي الاتراك وحالة البلاد السيئة وقلّة المدارس فلا تكاد تجد كاتباً يستحقّ الذكر

٩ انطونيوس فريجي اللبناني

﴿تعريفهُ﴾ في مكتبتنا الشرقيَّة مجموع قديم بالكرشوني كُتب في السنة ١٦٨٤ كما هو مدوَّن في آخرهِ . يبلغ عدد صفحاتهِ ٢١١ صفحة . والكتاب يتألف من قسمين قسم يحتوي زجليَّات ابن القلاعي الذي سبق ذكرها . وقسم آخر من نظم كاتبهِ الذي أفادنا في آخر الكتاب عن اسمهِ واسرتهِ وطائفتهِ فيدعو نفسهُ «انطانيوس ابن ابو منصور حنَّا من بيت فريجي من قرية كفردبيان بجبل لبنان» كتبهُ «في دير مار انطونيوس قزحيَّا في السنة المذكورة» ويطلب الصلاة لاجل «معلّمهِ المطران يوحنَّا السمَرجُبَيلي»

﴿منظوماتهُ﴾ لانطونيوس المذكور زجليَّات كما لابن القلاعي منظومة على اوزان عامّيَّة قلّما تُراعَى فيها قواعد اللغة بينها تراجم قدّيسين وذكر حوادث تاريخيَّة اهمُّها ما ذكرهُ عن فتح الاتراك لقبرس سنة ١٥٧٠ وكوارث طرابلس سنة ١٥٨٠ نذكر هنا منها شيئاً .

وقد قال زجليَّتهُ عن قبرس واصفاً ما حدث بها من ضروب النكبات لمَّا ارسل السلطان سليم الثاني اسطولًا تحت قيادة مصطفى باشا ففتحها وانتزعها من ايدي البنادقة الذين بعد دفاع طويل سلَّموها بالامان . فلم يَقُم المسلمون بوعدهم فقتلوا في الماغوصة القبطان وسلخوا جلدهُ وقتلوا معهُ ٤٠٠ رجل وسبوا من الروم ١٨٠،٠٠٠

وقتلوا وحرقوا نحو ٥٠،٠٠٠ وقُتل من الموارنة ١٨،٠٠٠ . ثم حلفوا لاثني عشر الفاً من الجنود المتحصّنين في قرية كاليسباسي (؟) على رأس الجبل انَّهم اذا سلّموا لا يضرّونهم بشيء بل يردّون لهم قراهم ويولّونهم عليها . فلمّا سلّموا قتلوهم عن آخرهم . ثمَّ طافوا كل الجزيرة واستعبدوا اهلها وصيّروا كنائسها جوامع وخانات . وسبوا نساءها فارسلوهنَّ الى القسطنطينيَّة في ثلث سفن لكنَّ امرأةً باسلة منهنَّ احرقت السفن فراراً من العار فذهبنَ شهيدات العفاف

وقد وصف انطونيوس فريجي شيئاً من ذلك بهذه الزجليَّة التي جعل عدد ادوارها على عدد حروف المعجم قال ما نرويهِ بحرفهِ الواحد كأثرٍ تاريخي وكدلالة على انحطاط اللغة في ذلك العصر

* الالف * اليوم قلبي اصبح سكراني ، اذ ليس خمرًا على قوبروسَ نَدْماني ، الدم يغلي ودمع العين غزراني ، اليد تكتب تواريخ صابت ازماني ، سنة الف وخمسمائة وسبعين ربَّاني

* الباء * بقبروس فؤادي بات مفتكرْ ، من مغرب الشمس طول الليل الى السحرْ ، لخبر سمعتهُ من اولادها كدرْ ، كيف دخلت الترك قبروس واهلها خُسّر ، لاجل الخطا الله عطاها لابن العثماني

* ج * جزيرة قبروس كم جرى فيها ، كان النصارى براحا ساكنين فيها ، لكن بعض الفواحش اجهرت فيها ، الخُلف وعدم المحبَّة قلبَتْ كراسيها ، واهلها كاتبوا الى ابن العثماني

* د * دخلوا الترك والسَّعْد يخدمهم ، عربان وسودان ونصارى تساعدهم ، كانون الشتا كالصيف ليس بد اذكرهم ، كانون وسوباط هديت الريح بهم ، في البحر دخلوا المراكب تقول حيراني

* ه * هياكل قبروس كانت تشوّقني ، صلبان واقوان ونواقيس تفرّحني ، حين دخلَتْ الترك ادحوهم يا حزني ، ونصبوا موادن ومحارب

الى القبلي ٬ من بعد قتل اساقفة ورهباني

* الواو * ولّت ملوك الغرب عن قبروس ٬ قبل دخل مصطفى باشا(١ وصار حيفوس(؟) ٬ وكان قبطان بالاسقفيّة(٢ وكّل مرقوس ٬ وقبطان المغوصه(٣ وكيل نقولاوس(٤ ٬ وبدوا يجازوا بعسكر ابن عثماني

* الزاي * زال الحرب من اوّل صيام الكبير ٬ حاصروا الاسقفيّة الاسلام كبير وصغير ٬ نقبوا الاسوار وكان حاضر ناس من اغزير ٬ سابع يوم بايلول دخلوا ودقّوا نفير ٬ ملكوا وقتلوا خمسين الف نصراني

* الحاء * حرقوهم بالنار يا لله العفو ٬ واسبون (وسبوا) انفس مائة مع ثمانين الف ٬ واما الاموال والارزاق ليس يضبطهم وصف ٬ ايش حال غنم قطيع ادياب خطفهم خطف ٬ اخذوا وباعوهم في كلّ بلدانِ

* الطاء * طلبوا الماغوصة وحاطوا بها ٬ من كلّ جانب في الحصار ضبطوها ٬ قتلوا من المسلمين(٥ الوف لم عدّوها ٬ لان الف مدفاع كان فيها ويطلقوها ٬ صائب دحر العسكار فرغوا يجيء ثاني

* الياء * يا حيف على النصارى فرغ زادهم ٬ وانتام بارودهم وامسكت دروبهم ٬ سرعة خراج القبطان يعتفي منهم ٬ تقدّم الى

---

١) هو لالا مصطفى باشا اقامهُ السلطان سليم الثاني رئيساً على عسكرهِ لفتح قبرس سنة ١٥٧٠

٢) الاسقفيّة هي مدينة نيقوسية (Nicosie) وتدعى ايضاً افقوسية كانت حاضرة جزيرة قبرس حاصرها مصطفى باشا في تموز ١٥٧٠

٣) المغوصة هي فاماغوسطه (Famagouste) من حواضر قبرس

٤) نقولاوس اسمهُ نيقولا دَندولو. نسب الى جهلهِ خصوصاً فتح الاتراك لجزيرة قبرس

٥) يريد ان المدافعين عن مدينة الماغوصة قتلوا بمدافعهم كثيرين من المسلمين

مصطفى باشا وسلّمهم ، قتلوهُ وقتلوا معهُ اربعمائة نصراني

* الكاف * خلّيت (١قبروس من اكابرها ، واستوحشت ارضها باربع اقطارهـا ، تركت مساكين تفلح في اراضيهـا ، يزينوا جوالي وخراجات يؤدُّوها ، الى طاعة الاسلام في خطّ ديواني

* اللام * لمّا ملكوا البلاد واطمئنّوا ، من بعد ما قتلوا الفرسان وانتمّوا ، بعثوا بشارات الى السلطان وزال همّه ، وزيّنوا المدن في البلدان كلّهم ، من مصر الى اسطنبول والشام وبلدانِ

* الميم * مدينة طرابلس كانت الميناء ، حين دخلت المسلمين لقبروس محاربينا ، حسّ المدافع بقي واصل لادنينا ، ومن قبل ما يدخلوا عملوا اسافينا ، قتلوا مقدّم بشرّي كان نصراني

* النون * نسوان قبرس ليس ذكرناهم ، افعال قبيحة صارت ليس كتبناهم ، اطفال كثير غلمان وجواري اخذوهم ، اعجاموا كراد واعراب وسودان هم ، وتشتّتوا حسرة ما صار لها ثاني

* السين * ساقوهم ودموعهم تجري وتفارقوهم في البرّ والبحر ، من حدّ اسطنبول والى بلاد مصرٍ ، وصاروا عبيد يخدموا سادات بلا أجرٍ ، يا كسرة صارت بقبروس بازماني

* العين * عيوني تدمع حين اذكرهم ، قدكان لي معرفة في بعض ناس منهم ، ومن اهل قبروس تلميذ كان لي منهم ، اسبوا اخوته واهله وهو اشترى (نفسهُ) منهم ، وخلّص اخوه الصغير بمائة سلطاني

* الفاء * فرح ابليس في كسرة صارت ، في قتل كهنة و كنائس

١) الكاف بالسريانيّة تؤخذ للدلالة على الخاء والكاف معاً

بارت ٬ البعض عملوهم خانات للتجارة ٬ والبعض عملوهم جامع لهم صارت ٬ ورفعوا المواذن فوقهم عوض الصلباني

* الصاد * كفردبيان تُدعى قرية الخاطي ٬ كاتب انطانيوس براس واطي ٬ ورّخت قبرس تذكار لمن شاطي ٬ ومن لم يتوب غضبهُ يشعل بنيراني

* القاف * قوفروس وبشرّيه كانوا فال ٬ على النصارى في السواحل وفي الاجبال ٬ يا حيف عليهم كانوا اهلهم افضال ٬ والانشقاق الذي رماهم بشوم الحال ٬ ومن بعدهم باعوا الوقوفات رهباني

* الراء * رؤوسات الاسباط انحطُّوا ٬ وارزاق كنائسهم انباعت وانضبطوا ٬ والبعض تديَّنوا وثمانية حطُّوا ٬ والبعض انغلبوا من بعد ما قبضوا ٬ وزنوا الدراهم وراح الرزق لهواني

* الشين * شاشات النصارى قلعوهم ٬ ايضاً وجاليتين في العام حطّوهم ٬ اسود على روسهم يا ويه اكسوهم ٬ ظلماً على ظلم الجرح زادوهم ٬ من مصر الى اسطنبول حكم ابن العثماني

* التاء * تماماً احرف الالف على قبروس ٬ وليس كتبنا جميع افعال بني تركوس ٬ الان لاجل الخطا حكموا كفا نهدوس ٬ يا سامعين القول صلُّوا عسى نخلص ٬ الرب يغفر لنا الف آمين يكفاني

وختم الزجليّة بهذه الالفاظ : اذكر يا ربّ العبد الخاطي انطانيوس [Syriac text] اي الحقير الخاطئ الراوي لاجل ربّنا

فترى انَّ لغة نصارى لبنان في ذلك الوقت كانت في غاية الركاكة وهي الى السريانيَّة اقرب منها الى العربيَّة . ولانطونيوس المذكور زجليَّة من جنس الزجليَّة السابقة ذكر فيها ايضاً على ادوار حروف المعجم ما حدث في طرابلس وجهاتها سنة ١٥٨٥ لمَّا

نُهبت الخزينة السلطانيَّة في جون عكَّار فارسل الباب العالي جعفر باشا الطواشي لمحاربة يوسف باشا ابن سيفا فزحف بجيوشهِ واحرق بلاد عكَّار. ثمَّ تضاعفت الشرور بمجيء ابرهيم باشا والي مصر فصارت امور البلاد ولاسيا النصارى في اسوإ حال فقال انطانيوس ابن فريجي يصف تلك النكبات وهذا اوَّل زجليَّتهِ

الالف اليوم قلبي انبع الافكارْ ، أهدي بمارون وبلد الشام المختار ، بيروت وصيداء والبترون جبيل انفه صغار ، عرقا واطرابلس والحصن مع عكَّار ، بشرّي واغزير والشوف والقرى الاوكار

الباء بتاريخ ربَّاني بديت اذكار ، ثمانين وخمسة وخمسمائة والف سطار ، دخل طرابلس باشا طواشي دُعي جعفار ، وقال خزنة السلطان نهبوها في عكَّار ، وأغزير حميت لها ورجالها شطَّار الخ

وللمذكور ايضاً ميميَّتان قالها في وصف رتبة الشعانين وفي مديح القديس ماري بشواي الناسك الشهير وذكر الكاتب اسمهُ في آخر كلّ منها. ولم نجد لهُ ذكرًا في غير كتابنا هذا

١٠ زجليّون آخرون

وكأنَّ فنَّ الزجليَّات اخذ ينتشر في انحاء الشام في القرن السابع عشر على مثال ابن القلاعي وعيسى هزار وميخائيل حاتم. ففي مكتبتنا الشرقيَّة نحو عشرة مجاميع من ضروب الزجليَّات المختلفة الاوزان والادوار والقوافي واغلبها من القرن السابع عشر وردت في بعضها اسماء قائليها دون زيادة في تعريف اصلهم واخبارهم. ففي احد هذهِ المجاميع المتقن الكتابة والتجليد الذي كُتب في اواسط القرن السابع عشر نحو ١٦٥٠ وردت اسماء بعض القوَّالين مع امثلةٍ من اقوالهم فما عدا عيسى هزار وميخائيل حاتم السابق ذكرهما ذُكر اوَّلًا «القس جراسيم» (ص ١٩ـــ٢٥) ورُويت لهُ زجليَّة في العذراء مريم وميلاد المسيح هذا اوَّل ادوارها:

يا شعب يسوع المسيح الباقي للدهرِ استبشروا انحلَّت اوثاقي والحَجْر

نور بدا يلمع في الآفاقِ للطُّهر في بطن مريم حلّت الأَشراق في البكرِ

ويُختم هذا الدور ثمَّ جميع الادوار التالية بالتقديس المثلَّث باليونانيَّة بالحرف العربي: « اجيوس اوثاوس · اجيوس ايسشيروس · اجيوس اثاناطوس » · ما يدلّ على ان ناظمها كان روميًّا ملكيًّا

ثم يُذكر بعدهُ «يوحنَّا ابن المصري» ويُروى لهُ ثلث زجليَّات (ص ٣٦ — ٣٨) اثنتان في العذرا مريم افتتح الاولى بقولهِ:

لذكر العذرى زين افخر النسوانْ سِرْ ايا قلبي وابتهج فرحانْ
قد سمَتْ بالفضلْ امّ شمس العدْل واصطفاها قبلْ خلقهِ الانسانْ

وقال الثانية في ذكر مزار صيدنايا هذا اوَّلها:

رأيت بصيدنايا الحَبْل نامي وفيها النور في شكل الغمامِ
ونورًا ظاهرًا منها عِيانًا تعاينهُ الخلائق على الدوامِ

والزجليَّة الثالثة وعظيَّة خصَّ فيها الوصف على العلم والادب اوَّلها:

ما خلَّةٌ نُسجت بالدرّ والذهبِ إلّا واحسنُ منها العلمُ والادبُ

ثم ذُكر القوَّال «الخوري يوحنَّا نجل عيسى عويسات» فيروى لهُ عدَّة زجليَّات (ص ٣٨ — ٦٢) في مديح العذراء وخصوصاً مزار صيدنايا · ومن جملتها زجليَّتان يتعيَّن منها زمانهُ وملَّتهُ الملكيَّة قال الواحدة في رثاء البطريرك كير يواكيم ابن زياده المتوفى نحو السنة ١٦٠٣ والاخرى في مديح خلفهِ البطريرك دوروثاوس المعروف بابن الاحمر · افتتح الاولى بقولهِ:

اليَّ يا أجواد بالله اعذروني وفيضون (كذا) الدموع وساعدوني

وافتتح الثانية بقولهِ:

يـا شعوب الله اليَّ يـا مؤمنينْ قد نظمتُ المدح في الأَب الامينْ
كير ظوروثاوس ابونا الامـامْ ابن الاحمر كنوته يا سامعينْ

ثمَّ جاء ذكر القوَّال «يوحنا ابن سالم الدمشقيّ» له زجليَّة في العذراء (ص ٧٢) هذا اوَّلها:

ياموالي ساعدوني في مديح امّ الحبيبْ جابرة قصدي وعَونْي
مَن قَصَدْها ما يخيبْ

ثم ذكر القوّال «يوحنّا السمين الحمصي» وروى لهُ خمس زجليّات(٨٢ــ١٠٠) كلّها في مديح العذراء مريم وذكر سيّدة صيدنايا جعل ادوار الاولى منها على حروف المعجم وافتتح واحدة اخرى بقولهِ :

البتول فخر الانامْ حبّها صارلي غرامْ مَن قصدها يا خليلي
من قصدها ما يُضامْ

وذكر ايضاً ثلثة قوّالين من ذلك العهد دعاهم «الخوري يوسف عبود ابن البيض الحمصي ·وعيسى بن سالم ·وموسى ابن المصري» وذكر لكل واحد منهم زجليّة قيلت كلّها في مديح العذراء الطاهرة

وعندنا مجموع آخر من القرن السابع عشر كاد يتلف لقدمهِ والمرجَّح انهُ كُتب في الموصل فيهِ زجليّات لعيسى هزار وللقوّالين الآتي ذكرهم «القسيس ايليّا» لـهُ عدَّة منظومات في اسرار حياة المسيح ثم المسمَّى «عبدالله» لـهُ ايضاً عدَّة مدائح دينيَّة تقويَّة في آلام المسيح واوصاف والدتهِ الجليلة وهو يذكر في آخر احدى زجليَّاتهِ انهُ من حصن كَيْفا وهي مدينة مُشرفة على دجلة بين ديار بكر وجزيرة ابن عُمر · ويُذكر ايضاً بين القوّالين المسمَّيان «عبد المسيح وعبد يسوع» مع ذكر بعض زجليَّاتهم ·والظاهر انَّ كل هؤلاء عاشوا في القرن السابع عشر في العراق وهم من طائفتي السريان والكلدان الكاثوليك والله اعلم · وفي زجليَّاتهم مع ضعف لغتها مسحةٌ عربيّة اعظم من زجّالي لبنان

١١ طيمثاوس كرنوك

هو ايضاً احد الزجليّين الذين اشتهروا في القرن السابع عشر ·وقصّتهُ غريبة رواها جناب الفيكنت فيليب دي طرّازي في كتابهِ السلاسل التاريخيّة في اساقفة الابرشيّات السريانيَّة (ص ٣٠ــ٣٢) · هو حُمَيْلي بن ضعفي كرنوك المولود في ديار بكر في اواسط القرن السابع عشر وكان من ملّة اليعاقبة ·ولمَّا اقام الطيب الذكر يوسف الثاني

بطريرك الكلدان الكاثوليك كرسيُّهُ في مدينة آمد (ديار بكر) تقرَّب اليهِ وطلب اليهِ ان يسقّفه على ابناء ملَّتهِ السريانيَّة في ماردين ليردّها الى الكثلكة فخُدع بهِ البطريرك يوسف وسقَّفهُ ولعلَّهُ كان يجهل انَّ السريان الكاثوليك كانوا اقاموا لهم بطريركاً شرعيًّا اندراوس اخيجان فساء السيّد اخيجان تسقيفهُ ومنعهُ عن التصرُّف بدرجتهِ فهرب حُمَيْلي الى اوربَّة وكان قد اخذ في رسامتهِ اسم طيمثاوس. فكان وصولهُ الى رومية سنة ١٦٧٢ فدرس في مدرسة انتشار الايمان مدَّة ثمَّ اخذ يتجوَّل في انحاء اوربَّة كالنمسة وايطالية ويجمع منها الصدقات بحجج مختلفة وعُرف هناك باسم منقول عن العربيَّة كما تراهُ في عناوين كتاباتهِ (Timotheus Zaphi Agnellini Diarbechirensis Mesopotamiæ Episcopus) ثمَّ شاع امرهُ ونُسب الى المكر والخداع فحُبس عدَّة سنين في قلعة نابولي ثم أُطلق سبيله فدُعي الى رومية واعتزل الامور منيباً الى الله باعمال التوبة في دير القديسين الشهيدين قزما ودميان وفيهِ توفي بحريقٍ اصابهُ في احدى ليالي كانون الاوَّل من السنة ١٧٢٤ بعد ان زوَّدهُ بالاسرار احد الكهنة ودُفن مكرَّماً في كنيسة القديس لوقا واحتفل بجنازتهِ الطيّب الذكر مواطنهُ السيد اثناسيوس سفر العطار اسقف ماردين

﴿مصنَّفاتهُ﴾ كان السيد طيمثاوس كرنوك عالمًا باللغة السريانيَّة والعربيَّة والتركيَّة. وكان قد جمع عدَّة مخطوطات عربيَّة وسريانيَّة اوقفها على مجمع انتشار الايمان. ولهُ آثار دينيَّة عربيَّة طُبع معظمُها في مدينة پادوا في ايطالية. اولها مختصر كتاب الكمال المسيحي للاب الفونس رودريكس اليسوعيّ عرَّبهُ وطبعهُ سنة ١٦٨٨. ثمَّ ألَّف مجموعاً من الامثال الشرقيَّة المنثورة والمنظومة طبعها في اصلها ونقلها الى اللغة الايطاليَّة سنة ١٦٨٨ ايضاً. وفي السنة ١٦٩٠ طبع ايضاً هناك كتاب زهور المناجات (كذا) الحبيب ونصائح القريب لضعفي الديار بكري مع ترجمتهِ الى الايطاليَّة. وهذا الكتاب قد قدَّمهُ لرئيس الرهبانيَّة الفرنسيسيَّة الاب جوزف ماري بوتاريو (J. M. Botario) ويدعو فيهِ نفسهُ « باحقر اساقفة ماردين طيموثاوس ضعفي الحميلي الديار بكري» وصدَّرهُ بمقدَّمة طويلة ذكر فيها الزجَّالَ عيسى المزار الذي تقدَّمت سيرتهُ. ثمَّ وصف شغلهُ بصناعة الكيميا وتحويل المعادن الى ذهب والمادَّة الجامدة الى نبات وخرافات اخرى كهذه تدلّ على سخافة افكارهِ

ونشر اخيراً سنة ١٦٩٣ في المدينة ذاتها مدائح وتسابيح تقوية في التوبة وآلام المسيح وامه البتول مريم . وكان نشر قبلاً سنة ١٦٧٩ في باريس سبع مزامير التوبة ومديحة العذراء مريم في مطبعة بطرس الصغير (Pierre le Petit)

﴿ شعره ﴾ ليس لطيمثاوس كَرنوك شعر منظَّم وانما لهُ زجليّات عديدة بل معظم كتبهِ منظومات زجليّة يتصرَّف فيهـا كلّ التصرُّف ومدارهـا كلّها على مواضيع روحيّة دينيّة تغلب عليها مدائح العذراء مريم فها نحن نروي منها شيئاً بياناً لطرائقهِ النظميّة . فهذه مديحة قالها في مقام الرست :

باسم الطـاهرة مريمْ يحلو لي المـديحْ
وليس يوجد اسم اعظمْ كاسم ابنهـا المسيح
لهـذا كلّ متكلّمْ يـكرز فيها ويصيحْ
دائم شرفها لجيل وجيلْ هي فريدة بلا مثيلْ
لها الـكرامة والتبجيل والشـكر والتسبيحْ

منهـا الكرَم والجودْ ما لها شبيه في الوجودْ
ولابنها ربّنا المعبودْ يليق الكرامة والسجودْ
ودائم بالـدوام في كلّ الادهـارْ

كيف ما ينجحْ امري ويرجحْ رزقي يربحْ
من ما في خزائنها احتوى يأخذ كلّ انسان بما يرى
من الدرّ الفاخرْ

لابسة بالشمس رداها وتحت رجلَيهـا القمرْ
يتلألا كالنور ضياها وهي نجم الفجرْ
لولاها واللهِ لولاهـا لـكنّـا في الخطَرْ

هي صباحي هي مصباحي فيها افراحي تتزايد صحيحْ
هي هي سعدي وتكميل وعدي وغاية قصدي حبي وودّي
وفيهـا قلبي باضطرام وحبّهـا فيهِ كالنارْ
هي هي ديني ومستعيني فيهـا يقيني وحبّها في الخاطرْ
لها اسمٌ قوي عالي في الارض والسما
وذكر عالي متعـالي هي العذراء مريما
وفيها ينصلح حـالي ولو كنتُ في ضما

ادعوها في كل خطَرْ وأَجد فيها الظفرْ
واكون بهـا منتصرْ على الاعداء واستريحْ

للآب فيهـا سرورْ وروحهُ عليها حضورْ
والابن منها في ظهورْ ليفتقد شعبـه ويزورْ
ويخـلّص الانام من يد المكّارْ

انت هي نور الانوارْ انت هي كنز الاسرارْ
فيـك جميع الابرارْ وجدوا لـدائهم دوا
من ابنكِ الذي احتوى في بطنك الطاهرْ

ومن مدائحه اللطيفة فيها قولهُ :

منّي اليكِ السلامْ يا عـذرا يا بتولْ
انتِ فخر الانامْ امدح فيـكِ واقولْ

جبريل قد اتاكِ يا عـذرا بالسلامْ

باسمكِ ناداكِ في حُلو الكلامْ
يا طوبى ما اعطاكِ من التبجيل والإكرامْ
فيكِ خلّص آدمْ من قيود الخمولْ

قبلتِ منهُ السلامْ وازداد فيها . الفرحْ
بفطنة واحتشامْ عندها الامر اتّضحْ
من قوّة العلّامْ والكل لهُ يسبّحْ
ما في الارض والسما لهُ العزّ والقبولْ

ولدتِ الابن الوحيدْ في مذود بيت لحمْ
من مكان بعيدْ جاؤُوا ملوكُ العجمْ
في ميلاده السعيدْ انعتَق نسلُ آدمْ
حار فيهِ كلّ حكيم تاهت فيهِ العقولْ

بعد ما وردوا بالفرحْ والسرورْ
لانهم اهتدوا في نجمٍ بالنورْ
ولهُ قد اهدوا ذهب ومرّ وبخورْ
كما قال النبي عنهُ بالفصولْ

والرعاة قد غدوا بالبهجة والفرَحْ
خرُّوا لهُ وسجدوا والملائكة تسبّحْ
في الاعالي مجده بالارض صلحٌ يتّضحْ

وفي الناس المسرّه تشكر لك بالقبولْ

نطلب منك يا ربّ أبهجنا في اسعادكْ
لك نحبّ لك نرغبْ على حسب مرادكْ
في كل عيد لك نطنب وفي عيد ميلادكْ
نطلب منك النعمة بقلب خَشوع مَلولْ

١٢ الراهب كامل نُجيم الماروني

﴿زمانهُ وشعرهُ﴾ كان هذا الراهب معاصرًا لطيمثاوس كرنوك فازهر في اواخر القرن السابع عشر. ذكرتهُ المجلة السوريّة الغرّاء في عددها الصادر في ابريل ١٩٢٧ (ص٢٣٤—٢٣٨)وروت ما استفادتهُ من اخبارهِ وشعرهِ عن حضرة الاب برنردوس غبيره الحكيم رئيس الرهبانيّة الانطونيّة سابقًا. فيلوح منهُ ان الخوري كامل نجيم كان احد رهبان دير ريفون مترهّبًا فيهِ على طريقة العبّاد اللبنانيين القدماء قبل انشاء الرهبانيّات القانونيّة المنشأة في اوائل القرن الثامن عشر. وقد رُويت هناك لهذا الراهب زجليّة لطيفة صنّفها سنة ١٦٩٠ وصف فيها وصفاً مدقّقاً لعيشة اولئك الرهبان نستعيرها عن رصيفتنا المحققة

زجلية الراهب كامل نجيم

١ مَنْ يتّبعْ درب القديسْ مار انطونيوس النفيسْ
الربّ ينجّيهِ من ابليسْ ومن حيَل الشيطاني
٢ وضع لنا يا اخوه قوانين وهم يحفظونا من المجانينْ
ويكونوا لنا معينينْ في هذا الدهر الفاني

٣ وبعد ذلك ننال الملكوت ونسجد دوم لاسم التالوت
ونسبح لربّ الجبروتْ مع الآباء الرهبانِ

٤ كذلك من يريد يكون معهمْ وفي السما يرافقهمْ
يقبل القوانين مثلهمْ طاعة وعفّة يا اخواني

٥ والفقر ايضاً هو المسكنه ثلاثة قوانين للرهبنه
يخلّصوا الراهب من اللعنه ويسكنوهُ في الاجنانِ

٦ ومن يُريد يدخل المحاربه لازم يقعد بالتجربه
لئلّا تأتيه الكربه ويصير من الندمانِ

٧ وبعده ينذر على نفسه النذورات بحضور رئيسه
لئلّا الشيطان يوسوسه ويرميه في الطغيانِ

٨ واماً القديس البارْ مار انطونيوس المختارْ
كوكب النجم المزهرْ زايد عن الرهبانِ

٩ كما هو باين من الاخبارْ ومن قصص باقي الابرارْ
زاد هو عن جميع الاحبارْ بالقوانين والاحسانِ

١٠ امتناع عن اللحم دايمْ قانون رابع دوم صايمْ
نذر مختص ايضاً قائمْ ومن يخالفه يكون سكرانِ

١١ ويقطع الاربعا والجمعَهْ ويصوم دائماً الى التاسعَهْ
وصلواته تكون متشفعَهْ في من يتبعه من الآنِ

١٢ وايضاً خمسين يوم صيامْ مفروضة بتلك الأيّامْ
والصلاة دائم دوامْ يشكر ويسجد حقّاني

١٣ في خامس عشر من تشرينْ يبدا بالصيام والقوانينْ
ويطرد ايضاً المجانينْ اعني بتشرين الثاني

١٤ وثاني صيام هو اربعين يومْ بتالي الغطاس ايها القومْ
وهو صيام المسيح الى اليومْ يعيننا الله الرحمانِ

١٥ وايضاً اصوام الميلادْ وبطرس وبولس يا اجوادْ
يرزقنا اله العبادْ بشفاعته يا اخواني

١٦ وقطاعة السيدة مريمْ تكون شفيعتهُ بالعالمْ
لينجو من جميع المظالم ومن حريق النيرانِ

١٧ ومن يتشبَّه بالقديسْ مار انطونيوس الحبيسْ
ويخلصنا من ابليسْ في صلوات الطوباني

١٨ قضى عمره في الصيامْ لغياب الشمس كلّ الايَّامْ
والصلاة ايضاً قيامْ نهاره وليله سهرانِ

١٩ ومن جهة اللبس يا اخوه عبا عاللحم وقلسوه
وبشتيك وزنَّار جلد حقوه والنوم على الحصير كانِ

٢٠ ولمَّا يرقدوا الرهبانِ لا يحلُّوا زنَّار يا اخواني
والقلسوه ايضاً كمان ولا ينام عند العلماني

٢١ وايضاً لا يكثر الدورانْ وياخذ حذره من النسوانْ
لئلّا يوقع بالتوهانْ ويستسلم للشيطانِ

٢٢ وفي الديوره تكون سَكْنَتُهُ تحت الطاعة مع اخوته
ولا يكسل يقاعُ بشبكته اعني مصيدة الطغيانِ

٢٣ والصلاة تكون في اوقاتها في ليلها مع اشياتها
ونهارها مع فرضاتها تنال اجرة الجنانِ

٢٤ وقراية كتب المقدّسين وايضاً قصص القديسين
والرهبان المحبوسينْ ليشفعوا فينا يا اخواني

٢٥ وابدًا على عريس لا نصلّي ولا نصير اشابين بالكلّي
ولا نحضر عرس بالجملي ولا نركب خيل يا اخواني

٢٦ والخمر لا تكثّر شربه لئلّا يرميك في الكربه
ويرميك العدو في الضربه وتسقط في النيرانِ

٢٧ ولا تكثّر الحديث يا انسانْ لئلّا توقع بالنقصان
وتبقى من رفقة الشيطانْ وتصير من الخسرانِ

٢٨ واهرب من مجد الباطلْ وإلّا توقع في العاطلْ
ومن الكبريا ايضاً ماطلْ واحظر من الطغيانِ

٢٩ واحظَرك من الناس ورفقتهم ومن عطاهم ومعاملتهم
ومن الدوران بيناتهم تخسر كل الازمانِ

٣٠ ومن الموت لا تكونوا غافلينْ وفي امور الله متكاسلينْ
إلّا دائم متيقظين في عبادة الربّانِ

٣١ والمحبّة لله والقريبْ وتكون تُحسن للغريبْ
بالاكل والشرب أيها الحبيب يكون لك كنزًا غير فاني

٣٢ لانهُ هكذا قال سيّدنا بهؤلاء الوصيّتين علّمنا
كمال الانبيا وناموسنا وهم يرضوا الربّانِ

١٣ المطران جرمانوس فرحات

منذ استولت تركيّة على البلاد الناطقة بالضاد في العشر الثاني من القرن السادس عشر أُصيبت الآداب العربيّة بضربة أليمة . فكثرت الحروب وتفاقمت الشرور حتى ضعفت همم الأدباء عموماً وكسدت اسواق المعارف وأُقفلت المدارس الّا القليل منها لا تتجاوز في تعليمها مبادئ العربيّة وقلّما تجد بين المؤلفين كاتباً ذا سمعةٍ اللهمَّ الّا في بعض العلوم الفقهيّة او النحويّة . وغاية ما يُذكر عن شعراء ذلك الوقت ابيات

قليلة ذات معانٍ مبتذلة تشهد لصاحبها بالخمول دون النبوغ

وكانت حالة النصرانيّة اسوأ اذ لم يجد تبعتها اساتذةً جديرين بالتعليم فكان المسيحي اذا بلغ الى معرفة الكتابة والقراءة عُدّ من المعلمين الماهرين . امّا الشعر بينهم فانّهُ كان اسماً بلا مسمّى . وقد رأيت شاهداً على انحطاطهم في ما رويناهُ من الزجليّات السابقة المخلّة الاوزان الركيكة الانشاء

وقد بقي الامر على هذا المنوال الى اواسط القرن السابع عشر حيث ظهرت في الشام نهضة كان المساعدون على تعزيزها المرسلين الذين قدموا الى سوريّة في العقد الثالث من القرن السابع عشر ومثلهم تلامذة رومية الموارنة فهؤلاء بثّوا في العموم وخصوصاً بين النصارى روح النشاط والغيرة التي ظهرت ثمرتها في اواخر ذلك العصر وفي اوائل القرن الثامن عشر . وكان الفضل الاعظم في ذلك لحلب وطوائفها المسيحيّة المختلفة . فاشتهر بين بطاركتها واساقفتها بعض الكتبة الذين شاعت تآليفهم التي شرّفوا بها وطنهم الشهباء

امّا الشعر النصراني فكان ظهورهُ بعد حين في اواخر القسم الثاني من القرن السابع عشر . فكان المُجلّي في هذه الحلبة الراهب الحلبي جبرائيل ثمّ المسقّف على وطنهِ باسم جرمانوس فرحات

﴿ ترجمتهُ ﴾ هو جبرائيل بن فرحات مطر الحلبيّ المولد والحصرونيّ الاصل . رأى النور في الشهباء في ٢٠ تشرين الثاني سنة ١٦٧٠ وانكبّ منذ نعومة الاظفار على الدرس فبعد اتقانهِ المبادئ في مكتب طائفتهِ تعلّم اللغات على تلميذ رومية البارع الخوري بطرس التولوي واحرز الآداب اللغويّة والفنون العربيّة على بعض الشيوخ اخصّهم الشيخ المسلم سليمان النحوي والشيخ النصراني ابو المواهب يعقوب الشهير بالدبسي واجتمع ايضاً بالمرسلين فاخذ عنهم علومهم فاقرّ الجميع بنبوغهِ

وفي الخامسة والعشرين من عمرهِ احبّ ان يحيي في الشرق مآثر نسّاكه القدماء فيبعث الرهبانيّات المنظّمة من مواتها اذ لم يبقَ منها سوى ظلّها الخفيف . فاتّفق مع شبّان مثله على ان يهجروا وطنهم ويأتوا الى لبنان كقدماء النسّاك وقد اشتهر منهم عبدالله قرا ألي وجبرائيل حوّا ويوسف البتن . فصدّق على عزمهم البطريرك اسطفانوس الدويهي وسكنوا مدّةً في دير مُرت مورا . على انهُ وقع بينهم في السنين الاولى

بعض الاختلاف في تقرير رسوم الرهبنة كان سبباً لنفور جبرائيل فرحات واعتزالـه عنهم ثم لسفرهِ وسياحتهِ في جهات صقلية وايطالية واسبانية

فلمَّا رجع الى لبنان سنة ١٧١٢ وكانت هدأت الخواطر انضمَّ الى الرهبانيَّة الجديـدة وصار غير مرَّةٍ رئيساً عاما عليها الى ان اسند اليهِ البطريرك يعقوب عوَّاد رئاسة اسقفيَّة وطنهِ حلب في ٢٩ تموز سنة ١٧٢٥ فرعاها احسن رعاية وبهمتـهِ نمت عددًا وفضلًا الى ان توفَّاهُ الله في ١٠ تموز سنة ١٧٣٢

وللسيّد فرحات آثار كتابيَّة عدَّدهـا في المشرق (٧[٤١٩٠]: ١٠٥) المنسنيور جرجس منش (راجع كتابنا المخطوطات العربيَّة لكتبة النصرانيَّة ص ١٦٠ــ١٦٢). وقد اشتغل مـدَّة مع الآباء اليسوعيين فساعد الاب بطرس فرومـاج في بعض التعريبات بل كان انفرد في بعض السنين في ديرهم في طرابلس وفـكَّر في الدخول في رهبانيَّتهم كما فعل بعدهُ الاب بطرس مبارك والمطران جرجس يمين

﴿شعرهُ﴾ قد سبق لنا القول انَّ اوَّل ديوان نصراني ظهر بحصر المعنى انما كان ديوان سليمان الغزّي الذي روينا اخبارهُ. امَّا في النهضة الاخيرة في ختام القرن السابع عشر واوائل الثامن عشر فكانت قصبة السباق للسيّد جرمانوس فرحات. وقد شاع ديوانهُ منذ عهد حياتهِ فتعدَّدت نسخهُ في المكاتب ولاسيا في حلب وفي اديرة لبنان. منهُ ستّ نسخ قديمة في مكتبتنا الشرقيَّة. وقد سُرَّت مطبعتنا الكاثوليكيَّة بان صار لها شرف التقدُّم بنشر هذا الديوان نشرتهُ اوَّلًا مطبوعاً على الحجر سنة ١٨٥٠ ثمَّ تكرَّر طبعهُ على الحروف الى ان اهتمَّ المرحوم الشيخ سعيـد الخوري الشرتوني بمراجعتـهِ وتصحيحه واضافة تعاليق عليهِ سنة ١٨٩٤

ومع كبر حجمهِ وعدد قصائدهِ ومقطَّعاتهِ البالغة الخمسمائة بنيّف لا يزال بعض الادباء يقفون لهُ على منظومات لم تروَ في هذا الديوان. وقد نشرنا له في المشرق قصيدتين قالهما في رثاء الشيخ ابراهيم حماده المحسن الى جمعيَّتهِ (٧[١٩٠٤]: ٢٤٢٨٨[١٩٢٦]: ٣٩٧). وكلّ ذلك ممَّا يثبت للسيّد فرحات غزارة المادَّة وجودة القريحة

على أنَّنا لا ننكر انَّ في شعرهِ بعض الضعف على حداثة عهـد شعراء النصارى بنظم الشعر فهو يكثر من استعمال الجوازات الشعريَّة فيسكّن المتحرّك ويحرّك الساكن ويتسامح بما لا يتساهل باجازتهِ اهل اللغة. وكلّ ذلك احقّ ان يُنسب الى الخطاط

الآداب في عهدهِ من نسبتهِ الى شخصهِ . كيف لا وتجد بين منظوماتهِ قصائد رنَّانة جارى فيها الشعراء المفلقين كقصيدتهِ الرائيَّة التي يتغزَّل فيها بكمالاتهِ تعالى وهي تبلغ ستّين بيتاً اوَّلها (من البسيط) :

اللهُ اللهُ انتَ السمعُ والبصَرُ   في العاشقين وانت الفوزُ والوطرُ

واوسع منها نونيَّتهُ في مديح القربان التي افتتحها بقولهِ (من الكامل) :

ذلَّت لعِزَّةِ دينكَ الأَديانُ   وتكوَّنت بوجودك الاكوانُ
يا أيُّها المولى يسوعُ ابنُ العلي   انت الإلـه الفاطِرُ الديَّانُ
وافيتنا متجسّدًا لخلاصنا   من مريمٍ يا أيُّها الرحمانُ

ومثلها حسناً تغزُّلهُ بجمال قلب يسوع في همزيَّتهِ (من الكامل) :

يا قلبُ طِرْ من وُكْنَة الاحشاء   نحو الحبيبِ الفاخرِ الازياء

وما قولنا بميميَّتهِ التي أطرأ فيها كمالات العذراء مريم (من الكامل) :

لو كان للأَفلاكِ نطقٌ او فمُ   لترنَّموا بمديحكِ يا مريمُ

فهذهِ القصائد وكثير غيرها قد استحقَّت لصاحبها ان يُنظَم في سلك كبار الشعراء . ويزيد فضلهُ في انشادها انَّهُ ابتكر تلك المواضيع الدينيَّة التي لم يسبقهُ اليها غيرهُ من وصف اسرار وبسط عقائد وايضاح عادات نصرانيَّة ونسكيَّات رهبانيَّة استجدَّت في عصرهِ ونهج فيها طريقاً لمن اتوا بعدهُ

وقد تفنَّن السيّد فرحات في غيرها من قصائدهِ فعارض قطرباً بمثلَّثاتهِ الدرّيَّة وخمَّس عينيَّة الشيخ الرئيس ابن سينا في وصف النفس

هذا وقد وجدنا لهُ في نُسخ ديوانهِ المصونة في مكتبتنا الشرقيَّة نحوًا من ثلثين قصيدة او قطعة شعر لم تُروَ في ديوانه المطبوع . فها نحن نروي البعض منها كشذور

ذهبيّة حقُّها ان تُصان لكرامتها. فمن ذلك قصيدة قالها في عيـد تجلي الربّ في طور تابور في افتتاح سنة ١٧٢١ (من الكامل):

هذا التجلّي فأعصَ فيهِ الأدْمُعا لترى المسيح بطُورهِ مترفّعـا
يَنْساب جَـدولُ نورهِ متبلّجاً في أُفقـهِ أَحسِنْ بنُورٍ مَوْقعـا
فترى الدّراري من ضيـاء بَهائهِ وسَنا محاسنهِ الفريدةِ طُلّعا
فسما بهِ التابورُ لمّا ان سما بذُراهُ جا ربٌّ وقدّسَ أَرْبُعَا
وجَلا وجوهَ الرُّسْل لمّا أَنْ رأوا ناسوتَ سيّدنا المسيحِ مُشَعْشِعَـا
قد كان قبلًا عنهمُ متوارياً في طيّـهِ وبأمرهِ مُتبَرْقِعـا
أَبدى لهم يومَ التجلي ذاتَهُ كي يَعْرفوهُ المالئَ المُتوسّعا
فنراهُ في لاهوتهِ متكبّرًا ونراهُ في ناسوتهِ مُتخشّعـا
بطبيعتَيهِ جاء ينقذُ آدَماً متجسّدًا يسعى الينا مُذْ سعَى
عمَّ الكسوفُ الشمسَ في جَلَيانهِ والبدرُ أقْسَمَ انَّهُ لَنْ يَطّلعا
وكذا النجومُ الزُّهْرُ وَلّت مُذْ رأت نورَ الإلهِ محقّقاً ما أبْدعا
هذا نهارُ أُولي الإلهِ ورُسْلهِ م الابرارِ لمّا شاهدوهُ المُبْدِعا
شامُوا ضياءَ إلههم فتحيّروا ورأوا ضياءَ الشمس منهُ أَسفعا
وأَراهمُ ذاكَ المقامَ ممجّدًا ونسُوا بهِ في الحالِ آيةَ يُوشَعا
هذا نهارُ اليُمْن والإيمانِ في آثارهِ وبمثلهِ لن يُسمَعـا
ماءُ النعيمِ برَوْضهِ متدفّقٌ رِدْهُ اذا ما رُمتَ فيهِ المرتعا
قلبُ الشجيِّ مشوّقٌ فيهِ كما كَبِدُ الخليّ تَكادُ ان تتصدّعا

فترى قلوب الحاسدين ذكيّةً وعيونهم في النور أضحت رُتّعا
سَقْيا هِضابِ الطورِ لمَّا أن بدا في افقـهِ ربٌّ تجلّى مُبدعا
وعلاهُ من مولاهُ ما قد زانَهُ ورعاهُ ممَّا شان ذاكَ وأفظعا
وسقاهُ من ذاكَ الحيا طَلُّ الندى يكسوهُ ثوباً بالزهور مجزَّعا
شمسُ الهدى بزغت بأُفقِ سمائهِ وبدا شعاعُ ضيائها ان يسطعا
هذا مسيحُ الله في اكنافهِ متجلبباً متمجّدًا مسترفعا
مِعْراجهُ للطور يوضحُ انّهُ ملكٌ بدا بين الانام مُشَيَّعا
واتاهُ صوتُ ابيهِ يهتفُ شاهدًا هذا هو ابني فامنحوهُ المِسْمَعا
واختار بطرسَ في تجلّيهِ كما إختارهُ رأساً يفوق الاربَعا (١
واتى بيعقوبٍ ويوحنَّا الذي قد كان في الرسل الكرام المِصْقعا
فتحيَّروا ممَّا رأوهُ بارقاً من نوره لمَّا بدا ان يلمعا
وسرادقٌ مُدَّت عليهم بغتةً مرفوعةٌ من مجدهِ لن تُرفعا
نورٌ حقيقيٌّ عليهم مشرقٌ حتى غدوا صرعى لذلك هُجَّعا
لا مثل نورِ المُبْدعين وحزبهم لا يطلعَنْ من غير ان يتصنَّعا

وختمها بعد تفنيدهِ لمزاعم المبدعين بقولهِ :

لكنَّا نحن نرى بأن الذي يُرَى هو مجدُ ناسوتِ المسيح موشَّعا

---

١) قال في حاشية : يعني انَّ السيد المسيح اختار رياسة كرسي بطرس الرسول ان ترأس الكراسي الاربعة اي كرسي القسطنطينيّة والاسكندرية وانطاكية واورشليم

هذا هو الحقّ الصراحُ ومن يَرُمْ طُرق الهدى يُلقِ الينا المِسْمعا

ومما لم يُروَ في ديوانهِ قولهُ يشجّع نفسهُ وقد ضايقتهُ هواجس ابليس في افكار العالم سنة ١٧١٢ (من مجزوء الرجز):

فيا لكَم رأيتُني ومن بُكاء أجهشا

اتانا ابليس مُخبا دعاً لنا وقد رشا

وآنسَ القلبَ وكم آنسَ لي توحُّشا

ترى وقد وَسْوسَ لي بفعلهِ وأَوْحشا

مشى اليّ لا رِضىً عليّ لمَّا ان مَشَى

يرومُ سرّي انهُ بذلك السرّ فشا

فوشى بي وقد اراهُ يتلاهى كيف شا

خزيتَ ابليسُ كفي لا ترْضى عيني بالعَشا

ويروى لهُ قولهُ في وصف رجل من الغرب امتلك باسمهِ ملكاً ثمَّ اختلسهُ منهُ (من الوافر):

بأرض الغرب أبصرنا فِعالًا تذكّرنا فِعال المُفترينا

بإنسانٍ اراانا الخير لفظاً بلا معنى فخِلْناهُ مُعينا

دعانا اوَّلا حتّى حضرنا فكان من الرجال الناكثينا

وكان سَحابُهُ فينا جَهاماً وخُلَّبُ برقهِ وعدًا خؤوناً

بنى ما قد بناهُ على دمانا دم الشهداء والرهبان فينا

فان يثبت فذا يشهد عليهِ وان يسقط جزاء الظالمينا

وقال يهجو القضاة الجائرين سنة ١٧٢١ (من الطويل) :

سألتُ القضاةَ الآنَ والشرعُ مُشتكٍ عليهم ومنهم يشتكي الجَوْرَ والثِّقْلا
فَلِمْ جُرْتُمُ في الشرعِ والشرعُ عادلٌ وجُزْتم بهِ عدلًا وحُزْتم بهِ عَذْلا
اجابوا لنا انَّ الزمانَ مُوارِبٌ وكلٌّ لهُ فَنٌّ بهِ يَقْتَضي شُغْلا
فلمَّا رأينا الدهر بالحقّ مائلًا مِلْنا وكان الظُّلم في شرعنا عدلا
ولو لم نَجُرْ في الحكم اصبحَ شرعُنا وعرضُ القضاةِ الآن بين الورى نَذْلا
لأنَّا بوادي الجور ننساب والذي يراهُ نراهُ والهوى جامعٌ شَمْلا
فلا تنكروا منَّا ومن ذاك ريبةً اذا كان دمعُ العين للمذنب الغُسْلا
فكم هفوةٍ جاءت باثواب توبةٍ تجرّر اذيالًا تُواري بها فِعْلا
ومن قبلُ قد شانت بشأنٍ رسولها فكم صدَّقت رُسْلا وكم كذَّبت رُسْلا
ألا انَّما عقلُ الحكيمِ منزَّهٌ عن الجهل فيما يقتضي العقل لا الجهلا

وقال يقابل بين دموع التوبة ودموع المحبة (من البسيط) :

أَنحلتَ يا دَمعُ جِسمي فارْفُقَنَّ بهِ واكْفُفْ لأنّي علمتُ الإثمَ أَنحلَني
فدمعةُ الحبِّ تُبقي الجسم مبتهجاً ودمعةُ الإثمِ تُبلي الجسم بالوَهَنِ
شتَّانَ بين دموعِ الحبِّ ان صدقتْ فيهِ وبين دموع الإثم والدَّرَنِ

وقال في تجسد ابن الله ورفعة الانسان (من الكامل) :

صار الالهُ بحبّهِ متأنّساً من مريمٍ فهي الرجا والبابُ
ليخلِّصَ الخاطي الاسيرَ بموته ويؤلّهَ الانسان وهو ترابُ

وقال في فضيلة التقوى (من البسيط) :

محبَّةُ اللهِ روحُ النفس تُنعشها فينا ولكن لها روحٌ بها الرّضوى
فالجسمُ من غير روحٍ ميّتٌ وكذا محبَّةُ اللهِ لا تحيا بلا تقوى
تقوى الفضائلُ بالتقوى فلن تقوى من عارضٍ ما وإنْ أقوَتْ فلن تقوى

وقال في انتقال العذراء الى السماء (من البسيط) :

ربُّ السماوات والارضين قاطبةً لاقى انتقالَكِ يا بكرًا ولدْتيهِ
لمَّا حصلتِ لهُ امًّا ومُرضعةً حصلتِ في مجدِهِ السامي وحُزْتيهِ
اذ صار ناسوتهُ منك بقوّتهِ اراد يمنحُكِ ما قد منحتيهِ
خُذي يمين ابنكِ امًّا مُمجَّدةً فالمثلُ بالمثل شرْعاً منهُ نِلْتيهِ

وللسيّد فرحات قصيدة فنّد من نكر فيها حرّيّة الانسان في اعمالهِ حاملًا تلك الاعمال على القضاء والقدر منها قولهُ (من مجزوء الكامل) :

يا مَنْ خطَوْتَ الى الرّدَى لا تَعْتبنَّ على الخُطَى
اذ انت صِرْتَ مخيَّرًا من مُبْدعٍ فيما مضى
أَفليس للانسان في الأَرْزاقِ الّا ما سعى ؟
اين المقدَّرُ قُلْ لنا والعقلُ يصنَعُ ما يَرى؟
فعلامَ تقتلُ سارقاً وعلامَ تمدحُ من وفى؟
ان كنت يا ذا مُجبَرًا فالله يظلمُ من جنى
افسدتَ شرْعَ اللهِ والاحكامَ كلَّا والنُّهى

زال الثوابُ عن التُّقى وكذا العقابُ عن الزنا
كذبَ الكتاب فلا صلا ةٌ تُرتجى من ذي التقى
حاشا لربٍّ عادل بقضائهِ بين الورى
يبدو لدينا جائرًا او قاسياً مثل العدى
فارحم حياتك وانتزحْ عمَّا تراهُ من العمى
يوماً تُدان وتقتضي ذاك الجزاء بلا مِرا
فالخيرُ خيرُك ان بدا والشرُّ شرُّك ان جرى
انت المُثابُ على الوفا انت المدان على الاذى
ان صالحاً او طالحاً ولكلّ مرءٍ ما نوى

وللسيّد الشاعر الحلبيّ غير ما ذكرنا مما لم يُنشر بالطبع الَّا انَّ الباقي منهُ قد تشوَّه بالنَّسخ والمسخ فنكتفي بما سبق

١٤ الخوري نيقولاوس الصائغ

لا يمكنَّا ان نفصلهُ عن معاصرهِ السيّد جرمانوس فرحات فانهما كانا كالفرقدين في سماء الكنيسة الكاثوليكيَّة بل كشقيقين في خدمتها. وقد تشابها في امور كثيرة فكلاهما من وطن واحد وكلاهما آثر المهاجرة الى لبنان وكلاهما عدل عن العيشة العاليَّة الى التنسّك في الرهبانيَّة وكلاهما رأس زمناً طويلًا رهبانيَّتهُ وكلاهما نبغ بالكتابة نثرًا وشعرًا وتوفّيا قبل الشيخوخة البالغة

ترجمتهُ وُلد المترجم في الشهباء في السنة ١٦٩٢ من ابوين ملكيَّين عريقين في الفضل والتقوى. وكان ابوهُ صائغاً فأُطلق على ابنهِ نيقولاوس اسم الصائغ ونشأ في حجر والديهِ فتًى صالحاً ذا تقى وذكاء عجيبين. ولمَّا ترعرع أَنس في محيطهِ تلك النهضة الادبيَّة التي استفزَّ لها الشبَّان الكاثوليك في حلب فكانوا الاساس الاوَّل للصرح الادبي الذي تشيَّد بعدهم في ربوع سوريَّة فانضمَّ اليهم نيقولاوس واستقى من مورد

الذين سبقوهُ ولاسيا جبرائيل فرحات فاتّخذهُ كدليلهِ واستاذهِ كما اعلن بهِ في ديوانه حيث قال في مديحهِ (من الطويل) :

إمامي وذُخري بل غَناني ومَغنمي ... غَنمتُ بـه غُنماً تَجِلُّ غنـائمُهْ
فان يَكْفرِ الإِحسانَ من ليس شاكرًا ... فأَشبَهُ بالكفران من هو كاتِمُهْ
حلبتُ بهِ وُسْعَ الإِناء معـارفاً ... يُلازمني جُنْحَ الدُّجى وأُلازمُهْ
جنيتُ ثمار الحمد من دوح فَضْلِهِ ... وزَهْوَ ثناء عنـهُ شُقَّتْ كمائمُهْ

ولمَّا عرف انَّ بعضاً من اهل وطنهِ انقطعوا الى الله في لبنان شعر بالـدعوة الى الرهبانيَّة فودَّع الشهباء سنة ١٧١٦ وتنسّك في دير مار يوحنَّا الصابغ في قرية الشوير. وما عتّم ان وطّن نفسهُ على الفضائل الرهبانيَّة حتى عُدَّ من ارسخ الرهبان قدماً في ممارسة العيشة الفضلى وفي العلوم الدينيَّة فرُقي الى درجة الكهنوت سنة ١٧١٩ بوضع يد السيّد سلفسترُوس دهَّان مطران بيروت

ومذ ذاك الحين أُسندت اليهِ مهامّ رهبانيّتهِ الحنَّاويّة الكريمة فقام بها قيام الرجل المحنَّك الحازم الذي لا يثني عزمهُ شيء من المحن والمشقَّات. فعرف اخوتهُ انهُ مختار من الله ليدبّر جماعتهم وينظّم امورها فوقع عليهِ اختيارهم للرئاسة العامّة سنة ١٧٢٧ ثمَّ عادوا وكرَّروا انتخابهُ في تسع مجامع متوالية الى السنة ١٧٥٦ فعُني بامور الرهبانيَّة الحنَّاوية عنايةً تامّة ماديًّا وادبيًّا وروحيًّا . فمن فضلهِ ومن مالهِ الخاصّ بنى لدير الشوير كنيستهُ على اسم القديس نقولاوس شفيعهِ وشيَّد عدَّة قـلالي لمأوى الرهبـان واهتمَّ باديرة الرهبانيَّة الثلاثة التي كانت لها في لبنان ورأس بعلبك وفتح للعابدات دير سيّدة البشارة في الزوق واقام هناك ديرًا على اسم الملاك ميخائيل وبمساعيهِ فُتح دير مكين (دير الشير) وزحلة (مـار الياس الطوق) ونال من مكارم الحبر الاعظم ان تعطى لرهبانيّتهِ في رومية كنيسة سيّدة السفينة (Navicella) . واليهِ يعود الفضل بوضع القوانين لرهبانيّتهِ التي اثبتها الكرسيّ الرسولي سنة ١٧٥٧ . واكتسب بحسن ادارته وسياستهِ ثقة اعيان الجبل حتى مشايخ الدروز والمتاولة . وكانت وفاتهُ في اواخر السنة ١٧٥٦ في ١٧ كانون الاوَّل منها ودَّع الحياة بكل ورع وطمأنينـة وخشوع مزوَّدًا بكل اسرار الكنيسة وذلك في قرية الزوق في دير مار ميخائيل

﴿ادبيَّاتهُ وشعرهُ﴾ كان الخوري نقولاوس الصائغ مولعاً بالآداب العربيَّة منذ حداثة سنّهِ . ومع كثرة اشغاله بعد الترهُّب لم يزل يمرّن قلمهُ في الكتابة والتأليف. فمَّا يروى لهُ تاريخ الرهبانيَّة الحنَّاويَّة ومواعظ لآحاد واعياد السنة ورسائل مختلفة بعضها في شؤون خاصَّة وبعضها ادبيَّة محضة

امَّا شعرهُ فعُني معاصروهُ من اخوتهِ الرهبان بجمعهِ في ديوان كبير سبقت مطبعتنا الى نشرهِ كنشرها ديوان زميلهِ جرمانوس فرحات فكان ظهورهُ لاوَّل مرَّة سنة ١٨٥٩ . ثمَّ اعاد فيهِ النظر المرحوم الشيخ ابرهيم اليازجي فنقَّحهُ وطُبع بعد ذلك مرارًا

وان أعملنا في هذا الديوان نظر الانتقاد امكننا ان نعارضهُ بشعر استاذه المطران فرحات فقد عالج مثلهُ فنونَ الشعر حين لم يرسخ بعد قدم النصارى بكل دقائق العروض فتسامح كلاهما بجوازات لم يأنس بها الشعراء الفلقون. وانَّما يشفع بهما انهما كانا من المقدَّمين في النهضة الادبيَّة المستحدثة . .

وما لا ينكر انَّ للخوري نقولا الصائغ نفَساً شعريًّا في كثير من قصائده لاسيا تلك التي أنشدها في وصف العقائد الكاثوليكيَّة وفي الدفاع عن حوض الدين بازاء كنيسة الروم المنفصلة التي تحاملت في عهدهِ على الذين ارتدُّوا الى الكنيسة البطرسيَّة فذهب بعضهم ضحايا تعصُّب الفوتيوسيين. فتراهُ يخوض في اسرار البيعة وتعاليمها الغامضة فيقرّبها الى الادراك بشروحهِ وتشابيهِ الرائعة كما تراهُ في قصيدتهِ عن انبثاق الروح القدس من الآب والابن التي اوَّلها (من الطويل) :

رأى الله كلّيًّا بمرآة ذاتهِ ... وذاك بفِعْل العقلِ فانطبعَتْ طبعا

وقام بهذا صورةً جوهريَّةً ... لِما كانتِ الأعراض عن ذاتهِ مَنْعا

فمن عقلهِ النطقيّ أَصدر كِلْمَةً ... هي ابنٌ لهُ يُسمى ومولودهُ يُدعى

الى ان قال:

وما الروحُ إلَّا صادرٌ من كليهما ... كنفحة حُبٍّ شأنهُ الجُودُ والإرْعا

تعالى عن الاشباه والمثل نخلةٌ ... هو الآبُ إِصْلٌ مُنْبِتٌ خِصْبُهُ جذعا

كذاك وهذا الجذعُ أَطلعَ طَلْعَةً ... فقُلْ انَّما الاثنانِ قد بَثَقا الطَّلْعا

او الآبُ شمسٌ والشُعاعُ ونورهُ هما الابنُ والروحُ اللذان أرسلا شفعا
او الآبُ عينُ الماء والابن نهرها وروحهما الماء المُفاضُ كما يُدعى
او النفس ذات قوّى ثلثٍ وانها لواحدةٌ ذاتاً فثِقْ واحذر الخدعا

ومن قصائده الرنّانة ما قالهُ في مديح البيعة الرومانيَّة يقابل بين نعماها ونفاق بيعة القسطنطينيَّة كقصيدته القافيَّة التي ختمها بقوله (من الرجز) :

إحفظ بيُمْنك أُمَّةً ليست بغيرك واثِقَهْ
بمريم الطُّهر التي هي خيرُ بكرٍ عاتِقَهْ
لها سلامُ الله من كل البرايا الناطقَهْ

ومنها موشَّحهُ الشهير الذي يصف فيهِ عِناد المكابرين للحقّ :

يا لَقَوْم قد تناهى وانتَشَرْ غيُّهم في كلّ قُطْر واشتَهَرْ
أيها القوم الذين انتجعوا نُجعَة الإغواء حتى انفجعوا
يا لَقومي هل لكم ان ترْجعوا فلقد امستْ حِكاياكم سَمَرْ

يا لقوم

ومثلها قصيدتهُ في رئاسة القديس بطرس على الكنيسة وسلطانهِ المُطلق وقيام خلفائهِ الاحبار الرومانيين في كرسيّهِ اوَّلها (من الطويل) :

أماناً لبُنْيانٍ غدا أُسُّهُ الصفا هو الراسخُ الاركانِ والثابتُ الاصلُ
فهذا الاساسُ الصّلْدُ بطرسُ صخرُه م الامانةُ والأُسُّ الذي ما لهُ ثَلُّ

وهي طويلة وكلّها بدائع . ولهُ ايضاً يستقبح الانشقاق ويندّد بالذين كانوا سبباً لهُ فقال في قصيدة لاميَّة تبلغ ابياتها نحو ٢٥٠ بيتاً اوَّلها (من الكامل) :

للانشقاق الرّذْل شرُّ مَعاني في أمرهِ قد حارَ كلُّ مُعاني
كم ذا أُكابدُ من مكايد حَرْبِهِ بفؤاديَ العاني بهِ وأُعاني

وللخوري نيقولاوس ما عدا هذه القصائد الدينيَّة الرنَّانة منظومات عديدة جارى

فيها مشاهير الشعراء بعضها في الآداب الاجتماعيّة وبعضها في وصف الاخلاق . وقد تفكّه في كثير منها فروى فيها الالغاز والاحاجيّ والتواريخ ولهُ بديعيّتان لطيفتان وارجوزة طويلة في الصلاة وشروطها وطرائقها . ومع ضخم ديوانهِ لا يزال لهُ قصائد متفرّقة لم تُنشر بالطبع وجدناها في بعض النسخ الخمس التي في مكتبتنا الشرقيّة منها بائيّة في نحو ثمانين بيتاً انشدها سنة ١٧٢٤ وصف فيها نكبات الدهر وسوء معاملات بعض اخوانهِ المنقلبين عليهِ . هذه نخبةٌ منها (من مجزوء الكامل) :

ذا الدهرُ ميدانُ المصائبْ وبنوهُ فُرْسانُ المعاطِبْ
ما هذه الدنيا التي هيَ للورى وادي المتاعِبْ
فخّ البلايا والرزايا والدنايا والمصاعِبْ
دهرٌ عجيبٌ لا ترا لُ صروفهُ تُبْدي الاعاجِبْ
تأتي بكلّ غريبةٍ حتى ترى منها الغرائبْ
في كلّ يومٍ نكبةٌ محمولةٌ فوق المناكِبْ
وبليّةٌ قد أوقرتْ مَتْن الكواهل والغوارِبْ

الى ان خصّص بالملامة مَن خان ودادهُ فقال :

ابناء امّي أغرضو ني والسهامُ أتت صوائِبْ
لو أنْ يعيّرني الاعا دي لَاحتملتُ ولم أُعاتِبْ
او انّ ضدّي غزّني ما كان ذاك من الغرائبْ
بل يا شقيق الروح انت م كسوتَني ثوب المثالِبْ
وجعلتَني غرضاً لسهمِ م منك راشَتْهُ المعايبْ
هذا جزا من كان لم يَتَحامَ عن حُمَةِ اللواسِبْ

لدَغَ الفؤادَ ولم أَقُلْ هذا الفتى نَسْلُ العقارِبْ
ما زلتُ امدَحُهُ واشكرهُ وَهْو لي هاجٍ وثالِبْ
لا غروَ من رَوَغانِهِ اذ هذهِ سِمَةُ الثعالِبْ
ذا طبعُهُ لا تعجبوا لفعلِهِ فالطبعُ غالِبْ
فذَرُوا ملامتَهُ لانّ اللومَ عندي غير واجبْ
ذا مُكسِبي صَفْحَ الاذى فالصفحُ من أَسنى المكاسِبْ

ومما فات جامعي ديوان الخوري نقولا الصائغ قولهُ في مديح مريم العذراء (من الكامل) :

انّ البتولةَ ذاتُ امرٍ نافذٍ تَنْهى وتأمرُ في الأَنام وتَحْكُمُ
ذاتُ المقام السامي في فَلَك العُلَى في حكمها كلُّ القضاء مُسلَّمُ
هي مَعْقِلُ المستجير وملجأُ الْمُسْتغيثِ وجَنَّةٌ لا تُثْلَمُ
بكرٌ تَسامى فضلُها فهي التي من مُستميحٍ نَوالها لا تَسْأَمُ
خيرُ الفدى بحرُ الندى ورِدُ الصَّدى كنزُ الجدى تهَبُ العَطاء وتُنْعِمُ
تَعنو لخدمتها البريَّةُ أَسْفَلًا ولها الملائكُ في الاعالي تخدِمُ
قد قوَّضتْ ظُلم الضلالِ لأنها عَلَمُ الهدايةِ والطِرازُ الْمُعْلَمُ
هي مَسْكِنُ الله العظيم وانَّها قدسُ المقادسِ والخِباءُ الاعظمُ
والكوكبُ السَّحَريُّ نورُ العَرْشِ مَنْ دانت لهُ شمس الضُّحَى والأَنجُمُ
هذي هي الحجرُ الكريمُ قد اجتباهُ وهامَ فيهِ الفيلسوفُ الاكرمُ
مُذ حلَّ فيها عاقدًا جسماً لهُ على انهُ بقُنومهِ متقسِّمُ

متنزّهاً لاهوتهُ عن لازمٍ لكنَّما ناسوتُهُ مستلزمُ

ربٌّ بسيط جسمهُ متركّبٌ يمشي فيعيا او يجوع فيَطْعَمُ

فَقُنُومُهُ فَذٌّ وليس بتوأمٍ وكلا الطبيعة والمشيئة توأمُ

يا عُمدتي في شدَّتي ومعونتي ببليَّتي والفوزُ فيها يعظمُ

فلأمدحنَّك ما حييتُ وإن أَمُتْ فلتمدحنَّكِ تُرْبتي والأعظمُ

حقٌّ على الافلاك مدحُك في العُلى لو كان لـلافـلاكِ نُطقٌ او فمُ

فعلى مديحك أجمعت وتجمَّعتْ عرَبُ البريَّة كلّها والأعجُمُ

أُهديكِ بِكْرَ الفكر خيرَ خريدةٍ في بحرها دُرُّ المديحِ مُنظَّمُ

برَعَ الختامُ بها بِمِسْكِ ثنائها أَعظِمْ بمدحٍ باللَّطائمِ يُختَمُ

وروى له مكرديج الكسيح في ريحانة الارواح قولهُ في العدوّ والصديق المماذق (من السريع) :

كم من عدوٍّ نلتُ خيرًا بهِ كم من صديقٍ حزتُ منهُ الأَسى

فاحذَرْ أيا ذا الحزمِ يا ذا النُّهى من روح ذي بغضٍ لك ان تَيْأَسا

وروى لهُ ايضاً (من الخفيف) :

يا بُنيَّ كن شاكرًا غير شاكٍ كي ترى الله في بلاكَ مُعينا

ليس بُدٌّ من القصاص ولكن إن يكن هاهنا فألطَفُ لِينا

انّ اوجاع ذي الدَّنى لا تُوازي ذلك المجدَ حين يظهرُ فينا

ومن اقوالهِ التي لم تُروَ في ديوانهِ قولهُ يصف الشباب وشهواتهِ (من الوافر) :

اذا ما الشابُّ شابَ وشبَّ فيهِ لظى الشهَواتِ يَستعر استعارا

فيشبهُ رُبى يعلوهُ ثلجٌ ويقذف جوفُهُ شررًا ونارا

وللخوري نقولا الصائغ رسائل نثريَّة كتبها في اغراض شتى وربَّما تأنَّق فيها وزانها بضروب السَّجع والجناس. وها نحن نضرب منها مثلًا وتلك رسالة وجَّهها الى احد مشاهير رهبانيَّتهِ الخوري يواكيم مطران البعلبكي (اطلب كتابنا المخطوطات العربيَّة لكتبة النصرانيَّة ص ٩١) ذكر لهُ فيها ما اصاب رهبانيَّتهُ من النكبات بفعل بعض المعادين وقد ضمَّن هذه الرسالة اشاراتٍ لطيفة الى العلوم المختلفة كما سترى في الالفاظ المخطوط عليها قال :

﴿اقتباسات من علوم الصرف والنحو والبديع﴾ من بعد تقبيل يديكم والتماس دعائكم . انَّهُ يليقُ بي ان ابثَّكم شرح ما توجَّهَ من امرنا مع الناكري المعروف ولا نلقي عوامل الجزم على معتلّها بل نحوها بصحَّة سالمة ولا نغفل عن الحاق وصف مُبتدإها وخبرها . ولولا منازعة الهموم التي اوجبت الاشتغال ولم تدَع لنا حالًا ولا تمييزًا لما تأخرنا من تقديم بيان كل شيء ممَّا دخل علينا من النواسخ التي صيَّرت بيننا وبين المدوء بُعد الفراسخ ، وتوكيد ابتدال صفة الامور بانعطاف القاصد لانهُ بعد ان حدَّ لنا القسمة بالقياس فاذ رضينا بها عدل عنها . وذلك الابتداء انتسخ بهذا الخبر وقد رفع الدعوة الى المجمع ناصبًا لنا بِشصٍّ المكيدة ليخفض جانب حقّنا او يجرَّ عليهِ ذيل الإلغاء بتقدير حذف كلّ ما يُضاف الينا من الحقّ الصريح والمضمر . والله أعلم بمصدر افعالهِ ان كان صحيحًا او مؤَوَّلًا وان كان ضميرهُ متَّصلًا مع الله او منفصلًا لعلّة ما . وقد جعل معرفة الحقّ نكرةً وسوَّغ الابتداء بها بعموم الباطل وخصوص نفي المنافين وجوب ولايتنا

﴿اقتباسات من علم المنطق﴾ وجعلنا موضوع ما حمل علينا من القضايا الوهميَّة . مع انَّ هذا اللازم لا يُلزم . ودعواهُ الكبرى اننا لم نسمع منهُ ولا الصغرى ومن ثمَّ حصل التنافي والتضادّ والتبايُن والتناقض وعكس القضايا فصار جميعها نقيض الوضع . جعل الحدّ بيننا حتى مجيءُ الجواب وتعريف ما يجب ان يحكم بهِ بعد الحكم الجازم والنتج اللازم . وقد جنَّس ونوَّعَ بنا فصولًا وأزهق نصولًا بالعَرَض العَرَضيّ على جوهر ما قام بذاتهِ من الحقّ بحمدالله تعالى حتى غدا حقُّنا كأنه طبيعة لا اقنوم لها

مع انَّ العدل اقنوم الحقوق والجوهر الاوَّل لطبيعة المعاملات. ومن ثمَّ سلَب حقوقنا وجرَّدنا منها. وأنَّى ينتج وجوب حقّ من قضايا كلّها سالبة

﴿اقتباسات من علم الهندسة﴾ «حتى غدوتُ ممّا نالني من هؤلاء كأنني جزء لا يتجزأ. او كنقطٍ في دائرة الحوادث تحت خطّ مستقيم من الكوارث ولو امكن لانزَوَيتُ الى زاوية او مربَّع واستغنيت بالموحِّد ذاتاً والمثلث الاقانيم على هؤلاء الاربع. وممَّا خرط لي الزمان من الاختلال صرتُ مثل كرةٍ تلعب بيَ الاحوال حتى صار طولي عرضاً وعمقي سطحاً وبسيطي مركَّباً والمجوَّف محدباً. وهذه جملةٌ تُغني عن التفصيل وهي أَولى بافضل التفضيل

﴿مقتبسات من علم العروض والجر الشعر﴾ وكنتُ أُوثر ان اعرض لك بديع افعاله وعَروض الموازين باعماله الَّا انها ذات شرح طويل مديد وافر غير انهُ سريع الرجز خفيف الحركات او مضارع لهُ فيما يتدارك كلّما يكون من جملة اولئك بالكمال، تراهُ منسرح الكلام مجزَّج يقتضب انواعاً من الاحتيال والاغتيال، يبسط عنهنَّ العذر وينقبض ويكف متى يسمع شيئاً غير متقارب لِمناهُ. وهذا اوجز ما يمكن من الشرح على صدور متون تقتضي حواشي، يكلّ عنها الناظمُ والناشي، ويرتع بميدانها الحاسد والواشي

﴿مقتبسات من علم الابراج الفلكيَّة﴾ « ولو كنتُ ممعناً بين ابراج السماء لم أَخل ان احتمل ما حمل قلبي من لذع عقرب الغموم، وعقلي من سرطان الهموم، والكمد، ما لا يقوى عليه الاسد. ولمَّا نُكس ميزان الحظّ ومال، ورعى جَديَ النَحس سنبلة الاقبال. وامتلأَت دَلوُ النفاق والجور، الذي لا يحمله الثور، وابتلَع حوتُ الغدر جوزاءَ العدالة أيقنتُ انهُ لم يبقَ في قوس الصبر منزع فمن ثمّ اقول

﴿مقتبسات من اسماء البلدان والمدن والانهر﴾ « ان عراق العيش تكدَّر فما راق، ولا راق لي عُمرٌ تقضَّى بإعراق، لانّ الذي كأنَّهُ بدجلة الآسي، لم يزلْ موصل الاذى اليَّ ويسيء، البصرة نحوي ويلحظني باللحظة الزوراء عن قبلة السِلْم فخلتُ اني في ميدان الحرب لا مدينة السلام. وغدوت في حيرة اصدأَت القلب فأبعدَتهُ من الريّ واودعتني البلابل، حتى كانني في بابل، بين اهلها المتمرّدين، والعوذ بالله من قوم ماردين، او كأنني في جوسق المِحَن وكأنَّ الدهر حلب لي من اثداء المحنة الشهباء

لبانَ التعب ، وسربَلَني بأطمار الذلّ بعد ثياب العزّ وهي عزاز ، وابتزّني كل الابتزاز ، ولطَّخني العاصي بعرَّة المعاصي ، حتى كأني في حماة وهيهات ان يرحضني العاصي ، فغدوتُ شاعراً بالبلاهة افضل من اهل حمص ولكن بصيغة المفعول لا الفاعل ولم يبقَ على جدّ الاحتيال ربلة . ومما نالني من اهل قاره انشد كلّ وقت « قِفا نبكِ » . ومذ تعرَّفتُ بهؤلاء النكرات ما شام طَرْفي ما طال الامد سوى بارق الكمد ، لكنَّما الدهر تصدَّى لفتكي ولله الحمد ما انا لهُ في صدَد . فوددتُ لو كنتُ في بعلبك مساجد الاصنام او اختها تدمر

ولمَّا التحفتُ بجبَّة الذلّ اطال كلب الجور العقور عليَّ نبحهُ وصارت همَّتي كالسلحفاة وكانت قبلُ كاللبوَة فغضَّت العين وطاطأ الراس وحسبتُ اني في قاع بحر الهموم يضيّق بعيني رُحب البقاع ، والفلوات ذات الاتساع ، كيف لا وقد أبسرَ نخلُ الظُلم وابلح ، وزحل العدل عن سبيلهِ ايَة زحلة وزحزح ، وانفصَم متنُ الحقّ فما ارتفع لهُ راس ، وغدت مسودَّة جُرد العهود ذات شراس وشماس ، ناكرة الإخاء والايناس ، فلم يتهيَّأ لي في مصر ولا كفرسلوان ولا ما ينقّي وَضر الهموم ولا عين سلوان . . .

« وكان عهدي بفلان انهُ كأرزة لبنان ، لا تهزُّهُ الرياح الزعازع ، فاذا هو كالقصبة امام وجه الريح تلعبُ بهِ الزوابع ، ولقد اثقل كاهلي نير البلايا من كلّ حادثة ، لان سكّة الجور في كل البلاد حادثه . فالحمد لمن لا يُحمَد على مكروهٍ سواهُ . انَّ الايَّام دكَّت طور اوطاري شرَّ دكَّة ، حتى حصلتُ بارض عكَّة ، ابيت منها بليلةٍ عكّة ، وجدَّلني الدهر اذ جادلتُهُ جدالًا افضى بي الى مجدل العناء فلم اجد جدلًا . وصفدَ الهمُّ قلبي بوثاقٍ وقيد وقطَعَ اوصال راحتي بجدّ شفاعمر او زيد . . . وصرت اشبه بمن انحدر من اورشليم الى اريحا ، ووقع بين اللصوص فصار جريحاً ، ولكني ارجو من حضرة القدس الجليل ذي الحرم الجليل ، وصخرة الرجاء الذي لا يخيب ولا يستحيل ، ان يرفعنا في القيامة على جبل صهيون السماويَّة . ويجعلنا اهلًا لنتمتَّع في جبل الخليل ويزيل من بيننا وبينهُ ذلك الحجاز الذي حجزتهُ المآثم والخطأ ويجعلنا من اهل المدينة التي رآها يوحنا نازلة من السماء ويقرِّب منَّا اليه الخُطى لكي تؤنس النفس بعد وحشتها نار تلك الديار ، ويقرُّ بها القرار ويخلّصنا من كفر هذه الدنيا . ويُحظينا بمصر ديارهِ الفاخرة ، ويذود عنَّا شرّ العُداة بقوَّتهِ القاهرة ، ويثبّتنا في حصن كنيسته المحاربة لنفوز بالحظوة

في الكنيسة المنصورة محلّة المجد الوريف التي تسمو على كل غور ونجد وثغر وريف ويروينا من ماء نيلها العذب وينقع منّا الظمأ ويرفعنا من هرم هذا العمر فوق فسطاط جَلَد السماء ويُصعدنا من هذا الصعيد ويزلفنا الى صعوده حيث لا صُعد للنفوس ولا تصعيد، ويرشدنا الى جدَد الحقّ الرشيد انهُ خيرُ هادٍ ورشيد

«وما وجّهتُ اليكم هذه العبارة — والعارف تكفيه الاشارة — إلّا لاني اخال انَّ الضرّ لاحقني غاية الالحاق، ويطاردني كأني راكبُ بولاق، قاصداً نكسي ونفسي . وهذا فعل من كان قاصد السوء فلنسعفهُ بالصلاة والدعاء»

فترى ما في هذه الرسالة من التكلّف والتصنّع وانما هي دليل على اقتدار صاحبها من مجاراة أدباء زمانهِ الذين أُولعوا بمثل هذهِ الفنون الاصطناعيَّة . ولهُ في ديوانهِ رسالة اخرى وجّهها الى معاصرهِ ومواطنهِ الاديب مكرديج الكسيح من مشاهير ادباء الشهباء في القرن الثامن عشر ضمّنها ايضاً ضروباً من فنون الانشاء نظماً ونثراً

١٥ الشاعر ابرهيم الحكيم

هو احد ابناء الشهباء الذين سأعدوا في وطنهم على تلك النهضة الادبية التي لاح فجرُها بين النصارى في القرن الثامن عشر

﴿لمحة من ترجمتهِ﴾ لسنا نعرف سنة مولد الشاعر ابرهيم الحكيم والمرجّح انهُ ولد في اوائل القرن الثامن عشر او اواخر السابع عشر . امّا اخبارهُ فلم يدوّنها احد من كتبة عصرهِ وانّما اطّلعنا على بعض اطوارها بما ورد في ديوانهِ الذي استخرجهُ من زوايا النسيان جناب صديقنا الاستاذ عيسى افندي اسكندر المعلوف بعد اطّلاعهِ على ما نشرناهُ في المشرق (١٠ [١٩٠٧]: ٥٥٩؛ ٥٨١؛ ٧٠٨) من قلمهِ بخصوص رحلتهِ من حلب الى مصر وقد جاء فيها عدّة قصائد وجدها في ذاك الديوان المخروم في اوّلهِ والضائع اسم مؤلفهِ

فيؤخذ من هذه الاثار انَّ ابرهيم الحكيم ولد في حلب من أُسرة كريمة من طائفة الروم الكاثوليك. ونشأ هناك وتخرَّج على علمائها النصارى وقد ذكر منهم منصوراً الحكيم من اقربائهِ الذي ورد ذكرهُ في اخبار طائفتهِ كاحد المدافعين عن حقوقها في وجه الدولة التركية في حلب والاستانة ثمَّ دان بالاسلام طمعاً بالشرف. ومنهم العالمان الشهيران الشمَّاس عبدالله زاخر والخوري نقولا الصائغ وقد همَّ بمدحهما شاكراً ثمَّ رثاهما بعد وفاتهما

وكانت أقامة ابرهيم الحكيم في وطنهِ يتعاطى فيها صناعة الطبّ على مثال اجدادهِ الذين أُطلق عليهم اسم بيت الحكيم فورثهُ بعدهم. وجاء لهُ في ديوانهِ قصيدة يشكو فيها صناعتهُ ويصف ما ينال المرء بسببها من المصاعب افتتحها بقولهِ (من الكامل):

تبًّا لرزقٍ يبتغيهِ الآسي تبًّا لذلك من عيون الناسِ
تبًّا لمرء عند ضرّ الناسِ يأ تي ربحهُ بالكَرْهِ والإِخساسِ
تبًّا لسوء صناعةٍ محسودةٍ مضروبةٍ بالقلّ والإِفلاسِ
تلقى الطبيب ولو حوى الاموال لا تبقى لديهِ لآخرِ الانفاسِ

وهي طويلة (اطلب المشرق ١٩٠٧ ص ١١١٦) وقد ختمها بقولهِ :

يبقى الطبيبُ عدوَّ كل الاهل والاحباب بل عدوَّ كلّ الناسِ

على انَّ مهنتهُ هي التي قرَّبتهُ من رجال الدولة كعُمر آغا يحيى بك ومحمَّد آغا ابن رستم. وانتدبهُ عثمان باشا والي حلب ليرافقهُ الى الاناضول فوصل بمعيَّتهِ الى سيواس سنة ١٧٥٧ وقد ذكرها في شعرهِ

ثمَّ دعتهُ الظروف واضطرَّتهُ الاحوال الى الخروج من وطنهِ في السنة ١٧٤٠ فرحل الى آطنه ثم رجع الى الشهباء ثمَّ خرج منها سائحاً سنة ١٧٥٠ الى اللاذقية فزار

صهيون وذكر آثارها ثمَّ رحل الى حمص واقام فيها مدَّةً (١٧٥٠ــ١٧٥٢) فعاد الى وطنهِ الى ان خرج سنة ١٧٥٧ الى سيواس بصحبة عثمان باشا

ولمَّا كرَّ راجعاً الى وطنهِ لم تطل فيهِ مدَّتهُ فانَّ البطريرك الدخيل سيلفسترس كان نال فرماناً لضبط كنائس الشام ومطاردة الكاثوليك فقدم حلب احد انصارهِ المسمَّى فيليمون فاضطرَّ مطران الروم الكاثوليك السيد مكسيموس حكيم ان يهرب من وجهه الى لبنان . فاخذ يضطهد الكاثوليك فحبس منهم وقتل منهم واراد ان يلقي في السجن ابرهيم الحكيم لتحمُّسهِ للدين ففرَّ من وجههِ وسافر من حلب الى لبنان ومنهُ الى مصر فقضى فيها سنتين ولا نعلم ما جرى لهُ بعد ذلك وترجّح كونهُ قضى نحبهُ في وطنهِ

ولم نطَّلع على سنة وفاة ابرهيم الحكيم . والظاهر انهُ عُمّر طويلًا فقد وقفنا لهُ على ابيات كتبها سنة ١٧٨٢ لضريح جرجي بشارة صائغ ختمها بهذا التاريخ :

فأذكرُ القول في التاريخ «بينكمُ فاجأني الموتُ كي احظى بمولائي»

وكان ابرهيم مقترناً بالزواج فرزقهُ الله اربعة بنين إلَّا انَّهم ماتوا صغاراً وكان اكبرهم يدعى جبرائيل رثاهُ ابوهُ سنة ١٧٤٣

﴿اخلاقهُ وآدابهُ﴾ انَّ الآثار الباقية من قلم ابرهيم الحكيم صورة ناطقة عن حسن طباعه وآدابهِ . وفي مقدَّمة صفاتهِ تديُّنهُ وعراقتهُ في معرفة عقائد النصرانيَّة فتراهُ وهو عالميٌّ يصف تعاليم الكنيسة وصفاً شائقاً ويتغنَّى بمحامد السيّد المسيح وقلبهِ الاقدس ويصف حبَّهُ الالهي ثمَّ يطرئ صفات والدتهِ الجليلة ويلتجئ الى شفاعتها كأبرّ البنين ويتَّسع بذكر الرسل الاطهار

ومن صفاتهِ صدق معاملاتهِ مع اهل وطنهِ والاجانب من مسلمين ونصارى ونفورهُ من ذوي المراء والنفاق واهل الريبة فيصفهم في شعرهِ وصف الرجل الفاضل الذي لا تعمل بهِ ظواهر الخداع

وقد اكثر في شعرهِ ذكر الزهد والتوبة ما يدلّ على ميل نفسهِ الى العيشة المسيحيَّة الفضلى

امّا أدبُهُ فانّ آثار قلمهِ تدلّ على رقّتهِ فتجد نثرهُ ونظمهُ في طبقة راضية وإن تسامح في نظمهِ ببعض الجوازات الشعريّة كسالفيهِ السيّد فرحات والخوري نقولا. وقد جاراهما في الفضل فلم يقتصر على الدينيّات والادبيّات بل تعاطى كلّ فنون الشعر وقد ذُكرت لهُ بديعيّةٌ في مديح السيد المسيح ووالدتهِ ورسلهِ وكنيسته (المشرق ١٩٠٧: ٨٣٦ــ ٨٤٢) ولهُ في اوصاف البلاد والرجال ومشاهد الطبيعة اقوال تدلّ على جودة قريحتهِ وبديع تخيّلاتهِ وحسن ذوقهِ هذا فضلًا عن غزارة مادّتهِ واتّساعهِ في بسط المعاني. وها نحن نذكر شذورًا من اقوالهِ فنحيل القرّاء الى ما نُشر من منتخبات قصائدهِ في المشرق (١٠ [١٩٠٧]: ٨٣٣؛ ٨٦٠؛ ١٠١٦؛ ١١١٠) وقد وقفنا على قسم من ديوانهِ الذي حصل عليهِ مبتورًا جناب صديقنا الاستاذ عيسى اسكندر المعلوف فنقتبس منهُ شيئاً. قال متغزّلاً في محاسنهِ تعالى جلّت قدرتهُ (من الكامل):

يا واحدًا شُرّفتَ في علياكا ... في قدرةٍ ما حازها إلّاكا

تُفدى بروحي يا قُصارى بُغيتي ... بل مُنيتي أنعِمْ عليّ بذاكا

وأرِ لِحاظَ الصبِّ مَنظرَكَ البهي ... واشفِ عليلًا يرتجي لُقياكا

أمنُنْ عليّ بنظرةٍ مترحّمًا ... قد شاقني رؤياكَ ثم علاكا

ان هبّ ريحُ الصُّبحِ او ريحُ المسا ... تتلفَّتُ الابصار نحو لِقاكا

تهتزُّ اوراق الرياض بزهوها ... فهي لسانٌ يبدي عزَّ سناكا

ان مالت الاغصانُ في روضٍ فهي ... كأناملٍ تومي وليس سواكا

والوُرْقُ مذ تعلو الغصون فانّها ... تروي بلذّةِ شَدْوها أسماكا

والسُّحْب لو رَكب اليراعُ بمَتْنها ... تُملي بفيض الماء وجه سخاكا

والبدرُ في افقِ السماء مصرّحٌ ... لولاكَ ما عرف البها لولاكا

فالكلّ منك وجودهم فتُنيرهم ... بسنائك السامي وانت كفاكا

أألفاكَ بي بسوادِ قلبي جائلًا لكنْ عيني تشتهي رؤياكا
أنعم عليَّ بنظرةٍ اذ انني أَيِسْتُ ان لم استشفَّ خفاكا

ومن محاسن شعرهِ قولهُ في مديح قلب يسوع الاقدس سنة ١٧٣٢ (من الكامل) :

يا أيها القلبُ الالهي الاقدسُ يا منبعَ الجود الذي لا يُحبَسُ
يا منهل الفيضِ الذي بورودِهِ ماء الحياة لكلّ من يتقدَّسُ
يا منبر الثالوث والكنزُ الذي خيراتهُ مَنْ أمَّها لا ييأَسُ
يا مصدر الجود الذي عمَّ الورى خيرًا تكلُّ الألسُنُ عنهُ وتخرُسُ
انت الوجودُ وانتَ عين الجود بل انت الحياةُ لكلّ من يتنفَّسُ
انت الجمالُ بل الكمالُ بأسرهِ ولهذهِ الاوصافِ تعنو الانفُسُ
انت الحبيبُ وانت عينُ الحبّ م والحاوي الكمالات التي لا تُعكسُ
انت الذي اضرمتَ نار الحبّ في قلب الذين هويتَ ان يتقدَّسوا
أضرمْ بقلبي هذه النار التي تحيا القلوب بها وتعلو الاروُسُ
ارجوكَ يا مولايَ قبل الموت ان تُعطي عُبَيدكَ ما بهِ يتهجَّسُ
ان ترتضي قلبي لقلبك منحةً وذبيحةً حسناء لا تتدنَّسُ

ومن تغزُّلهِ في مديح مريم العذراء قصيدتهُ اللطيفة التي يقول فيها (من الطويل) :

لقد عُفتُ كلَّ الحبّ من دون حبّها فكلُّ ودادٍ ما عدا ودّها دَها

فحتَّامَ ارجو في الأنام مودَّةً   وقد زاد وَجدي دونَ أحبابها بِها
فيلوا اليها واملكوا العزّ والعزا   فمن كان منسوباً الى عزّها زها
فقد جُمعت فيها المحاسِنُ كلُّها   فهيهاتَ ان يحوي محاسِنَها نُهى
واذ لم يكن في الناس نِدٌّ لحسنها   ظَنَنَّا اباها البدر او أُمّها مُها
لذا حارَتِ الالبابُ في حُسْنِ وَصْفها   ولَما قَدِرَتْ إحصا ثنا فضلِها لَها
اذا أسفَرَت اخفَى ضيا الشمسِ نورُها   وأدهَشَ أبصار الورَى ما بِها بَها
فَيا حَبَّذا ذُلّي لديها وحَبَّذا   دِماي فلو شاءت لأبذُلها لَها
هي العروة الوثقى وهي الملجأ الذي   يقينا اذا ما الخطبُ من ضدّها دَها

ومن مديحهِ قولهُ من قصيدةٍ رائيَّة طويلة اوَّلها (من الطويل) :

أَلاليتَ هذا الدهرَ يصحو من السُّكرِ   ويصفو لما ابداهُ من كَدَرِ الغَدْرِ

ومن مديحهِ ايضاً الفيَّةُ التي قالها في السيد جبرائيل حوشب اسقف حلب المارونيّ وخلَف السيد فرحات (من الكامل) :

غنَّت حمامُ الروضة الغنّاء   برخيمِ شدوِ ثغورها اللَّمياء
وأمدَّها أرَجُ النسيم بنفحةٍ   فُضَّت كختم المسك في الارجاء

ومنها :

كنزُ التُّقى جبريلُ بل مأوى النقا   خيرُ الوجود وجودُ كلِّ سناء
راعٍ امينٌ حارسٌ متيقّظٌ   نَدبٌ كريمٌ لجَّة الأنداء

فهو السراج العالي فينا منارهُ   مذ لاح أخفى ظلمة الإغواء
صرحٌ على جبل الفضيلةِ ثابتٌ   لا يختفي عن اعين النظراء

وهي طويلة تنيف على ٦٠ بيتاً ختمها بقولهِ:

منّي السلامُ لك دواماً طالما   صدحت حمام الروضة الغنَّاء

ولهُ في مديح بعض السادات (من الطويل):

همامٌ كساهُ اللهُ ثوباً مُدبَّجاً   من الفضل والآداب والمجد والفخرِ
لهُ تشهد الراؤون في كلّ قبلةٍ   وتنشدهُ الكتَّاب في البدْو والحضرِ
حَزُومٌ أبت إلَّا امتداحاً صفاتُهُ   برغمٍ من الاعداء طوعاً بلا قسرِ
غيُور على الايمان في كلّ حادثٍ   نصوحٌ سديد الرأي في النَّهي والأمرِ
لك اللهُ من ندبٍ لقد قرن التُّقى   مع العلم والفضل المنيف مع الطُّهرِ
أتته المعالي اللائي عزَّت على الورى   وحنَّت اليهِ كالفطيم الى الظئْرِ
أيا طالبين السَّيْرَ في اثرهِ أقصروا   فاين السُّهَى يا قوم من كفّ مستقري
فتلك اختصاصاتٌ فللَّه ان يشا   يخصُّ بها من شاء فضلاً بلا شُكْرِ

وقال في الشوق الى بطرس احد اصدقائهِ وهو في الغربة (من الطويل):

إلامَ أداري الشوق وهو خؤُونُ   وأخفي التياعاً والدموعُ شؤُونُ
الى الله أشكو من أذى الدهر لوعةً   يحنُّ لها القلبُ الخلي ويلينُ
ووحشةَ دارٍ غاب عنها أنيسُها   فعدتُ بقلبٍ يعتريهِ انينُ
لكلّ من الأدواء طبٌّ لدائهِ   ولكنَّما داء الفراق دفينُ

أَلا أيها الخلُّ الصدوقُ بودّهِ وان غرَّبتْهُ في البعادِ شطونُ
ابثّك شوقاً ذاب منهُ تجلُّدي وحسبي نحولي شاهدٌ وضمينُ
كأنَّ أُوَيقاتٍ تقضَّت بقُربكم لطائفُ طيفٍ في الصباحِ تبينُ
لقد نبّهت مني الشجونُ لواعجاً من الشَوق لم تُغْمض لهنَّ جفونُ

ومنها:

أَلا يا نسيماً علَّ في ساحة النَّوى فأحياهُ عن طلِّ السَّحاب هَتُونُ
تلطَّفْ رعاكَ الله واحمل تحيَّتي فانَّك في نَقْل السلام امينُ
الى مَربع التقوى الى مَنبع الجدى الى مَنْ فؤَادي في حماهُ رهينُ
الى بطرس المفضال والمُخْلص الذي تراهُ بصدقِ الودِّ ليس يَمينُ
هو مؤنسي بل ضوء قلبي فمن تُرى لذلّي على هذا المُصاب يُعينُ

وختمها بقولهِ:

اليك شقيقَ الروح بكرًا توجَّهت لها من معاني الوَجْد فيك فنونُ
فدُمْ يا ابنَ وِدّي في ذُرى الخير والرضا مع اليُمْن والاقبال حيثُ تكونُ
مَنيعاً شديدَ البأسِ في كل حادثٍ لك السعدُ خِدْنٌ والفلاحُ قرينُ

ومن رثائهِ قولهُ في صديقهِ الشمّاس عبدالله عبده مات بغية بكرهِ يوسف (من الطويل):

لقد جار دهري وانتضى سيف غَدْرِهِ فأفنى اصطباري ثم أَوْهى شبيبتي
وساء بنزع القلب من مهجتي وهل يُرَى ليَ شخصٌ بعدَ فقْدِ الاحبَّةِ
بموت العزيز القَرْم ذي الهمَّة التي علَتْ في المهمَّات العظامِ بجليةِ

هو النَّدْبُ عبدالله نصرةُ من أتى وجيعاً كسيرَ القَلْب بادي الفجيعةِ
فيا ليت شعري هل يُرَجَّى لقومهِ سلوٌّ على المفقودِ ام بُرْءُ عِلَّةِ
سوى نجلهِ ذاك المفدَّى لدى الورى هو يوسف المفضالُ عزُّ الايمَّةِ
هو شبلُ ذاك القَسورِ القَرْم مَنْ نشا بحُسن السجايا والحِمى والمزيَّةِ
لئن لم يَفُزْ منهُ بتوديعهِ ولا ببعض كُلَيْماتٍ شفاءٌ لِغُلَّةِ
فانَّ لسان الحال عنهُ كقائلٍ: «ألا يا حبيبي دون اهلي وصحبتي
ويا يوسفُ النجلُ السعيد فان ترى جزاءٌ لأتعابي وتسكينِ لوعتي
فلا تُغضِيَنْ طَرْفَ العنايةِ والعَنا عن اخوتك اللائي هم رُوحُ مهجتي»

ومن اوصافهِ الحسنة ما قالهُ في سفرهِ بحرًا في سفينة قلاعيَّة قبل ان يشعر بهيجانهِ وتلاطم امواجهِ اذ كان البحر هادياً والسير موْاتياً واديم السماء صافياً والنسيم عليلًا (من الطويل):

يقولون انَّ البحرَ ساءت مصائبُهْ وقد كثُرَتْ آفاتُهُ ومعاطِبُهْ
واني رأيتُ البرَّ اقوى شدائدًا وأعظمَ اهوالًا وتُضني متاعِبُهْ
حُزونٌ وأوعارٌ نُزولٌ ثمَّ ارتقا وسَيْل وحطٌّ ثمَّ قومٌ تُناهِبُهْ
وفي البحر راحاتٌ كأنَّ الفتى بها ينامُ على مَهْدٍ تساوَتْ مناكِبُهْ
تَسير بهِ الركبانُ من فوقِ مَتْنِهِ كأنَّ على سَطحٍ تعالت جوانِبُهْ
تَهبُّ عليهِ الريحُ في طيب سَيْرِه ويا حبَّذا سَيْرًا تطيبُ مذاهِبُهْ
ترى سُفْنَهُ من فوق صَهوات ظهْرِهِ كأنَّ قصورًا زيَّنتها حبائِبُهْ

وَتحكي قلاعاً طائراتٍ مع الهوا ... يلاعِبُها ريحُ الصبا وتُلاعِبُهْ
تمرُّ كمرّ الطَّير من غير عَنوَةٍ ... وتجري كسهْمٍ جاد بالحزم ضاربُهْ
فكم سائرٍ فيهِ ينامُ بساحلٍ ... ويصحو على الشَّطِّ الذي هو طالبهْ
يبيتُ ويجري سائرًا غيرَ عالمٍ ... ولم يَدرِ إلّا طالبتْهُ قوارِبُهْ
وكم تاجرٍ فيهِ رأى بعد فاقةٍ ... جزيل الغنى لمَّا اتتْهُ مكاسِبُهْ
وكم سائرٍ فيهِ يلاقي مع المدى ... عجيبَ امور حين تبدو غرائبُهْ
عَليك به يا صاحِ من دون خَشيةٍ ... ترى ما أُحيلاهُ واهنا مشارِبُهْ
ولا تُعطِ أُذْناً للمجيب بلَومهِ ... فجلُّ الذي لم يَبْدُ منهُ معايبُهْ

اجتزينا بهذه الامثلة لتعريف ابراهيم الحكيم فانَّ في آثارهِ دليلًا على انَّهُ ساعد ابناء وطنهِ في نهضتهم الادبيَّة التي عمَّت بعدئذٍ انحاء الشام. وذلك ما يشفع ببعض الركاكة التي تُرى في قصائدهِ كما في شعر مواطنيهِ وهم يعيشون في محيط خامل جامد لا يجدون مدارس منظَّمة في وطنهم ترشدهم وترقيهم في الآداب كما انهم لم يأنسوا من الدولة التركيّة وارباها تنشيطاً على العمل

ولنا في رحلة ابرهيم الحكيم الى لبنان ومصر التي نشرناها في المشرق(١٠[١٩٠٧]: ٥٥٩؛٥٨١؛٧٠٨) شاهدٌ آخر على فضلهِ في الكتابة. ولهُ هناك نثرٌ بديع تبسَّط فيهِ واعرب عن تفنُّنهِ في الانشاء وحسن الوصف لعواطفهِ الباطنة ولِما عاينهُ في تلك السياحة من البلاد والرجال والمشاهد الطبيعيَّة الفتَّانة والحوادث الواقعة وكلّ ذلك بالسجع اللطيف. فمن قولهِ يصف نوْء البحر واهوالهُ بعد وصفهِ محاسنهُ وافضالهُ:

« واقبلَت الليلة الدمساء، واذا بالجوّ قد تعكَّر وبرد، وابرق وارعد، والبحر أرغى وأزْبد، وتطّى وتمدّد، واضطرب وهاج، وتراحمت فيهِ الامواج، وعجّ ولكن ايَّ عجاج، وتهاطلت الامطار كالمدرار، وتزوبع الريح وثار من سائر الاقطار، حتى عدمنا القرار وتقاربت منَّا الاعمار، وتحيَّرت الافكار، وترايدت الاحزان والاكدار، وتقطّعت العزائم والاوتار، وعاد كلّ كالمحتار لكثرة الخوف والانذعار، فقضينا ليلةً نابغيّة، بأحزان يعقوبيَّة واحتمالات

أيوبيّة، الى ان طلع الصباح، واضاء بنوره ولاح، ليعرّفنا ايّ ارض شارفْنا من البطاح، فأخبرنا بما ينفي الافراح ويزيد الاتراح، حتى عُدنا كالاشباح العادمة الارواح . . . ولولم يلفّ النوتيّ القلاع، ويُنزل الشراع، لشردنا الى غير بقاع، وضِعنا شرّ الضياع، وبقينا على هذهِ الحال يومين وثلث ليال، مقطوعين الرجاء والآمال، لا نفرق اليمين من الشمال، من شدّة الاهوال . . . »

ولهُ هناك وصف جميل لبيروت ومناظرها ومديح اهلها فيوقفنا على احوال عاصمة لبنان في اواسط القرن الثامن عشر في عهد الشهابيين اذ كان البيروتيُّون راتعين في بحبوحة الهناء قبل الجزّار وحكمهِ المشئوم

١٦ الشاعر انطون بيطار الحلبيّ

هذا ايضاً احدى ثمار الدوحة الادبيّة التي بسطت فروعها في الشهباء في القرن الثامن عشر وكانت باعثةً للنهضة الجديدة التي امتدَّت بعد ذاك الى انحاء سوريَّة

﴿لمحة من اخباره﴾ من العجب العجاب انَّنا لا نجد احدًا من كتبة الشهباء وباحثيها حاول حتى الآن ان يكتب تراجم هؤلاء الجهابذة الذين اولوا وطنهم فخرًا. ومنهم انطون بيطار المذكور فانَّ تاريخ وطنهِ صامت عن ذكره. وكان أملنا من صاحب إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء السيد محمَّد راغب الطبَّاخ ان يُدوّن اخباره واخبار زملائهِ النصارى الحلبيين في جملة شعراء القرن الثاني عشر فسها عن ذكرهم فعساهُ يسدُّ الخلل في جزئهِ الاخير فانَّ آثار هؤلاء الادباء اوسع وأرقى مما اوردهُ عن كثيرين من المسلمين

فلا يبقى لنا إلَّا ان نعمل النظر في ديوانهِ فنستخلص منهُ لمعة من أخبارهِ

هو انطون بن شكرالله بيطار الحلبي الروم الكاثوليكي. كان مولدهُ في العقد الاوَّل او الثاني من القرن الثامن عشر. عُني منذ حداثتهِ بالآداب وبرع بالكتابة فخدم الدولة العثمانيَّة في دواوينها حتى صار باشكاتباً بين عمَّالها

ويؤخذ من ديوانهِ انهُ عاشر أدباء وطنهِ وامائلهم النصارى تشهد على ذلك رسالة منمّقة وجَّهها الى الخوري نيقولا الصائغ رئيس الرهبانيَّة الحنَّاويَّة العام جواباً على كتابةٍ مثلها. ولمَّا توفي الخوري سنة١٧٥٦ قال انطون بيطار يرثيهِ(من الكامل):

أَواهُ يا ذا الموت كم أَرْزيتَنا بمصائبٍ دُهْمٍ كليلٍ حِندِسِ
فاَجَأتنا ببليَّة لم تُحتَملْ وفجعتَنا بالاب نيقولاوسِ
وهدمتَ ركنَ حياتنا بفراقهِ وتركتَنا نلقاهُ موتى الانفسِ
متأسّفين . ونائحين ولابسين م ردا الاسى والحزنِ اسوأَ مَلْبسِ
سِرْ ايُّها الابُ السعيدُ الى العُلا متمتّعاً بالمجد ضمن الاطلسِ
وارتع مع الاطهار وامتَعِنْ مع م الحَمَل الوديع على الرياض السندسِ
واسعد بحسن ختامِ تاريخ وسرْ متمتّعاً بنعيم ربّ اقدسِ

وشارك انطون بيطار اهل طائفتهِ بما نالهم من الاضطهاد من اعدائهم وخصوصاً في ايام بطريرك الفوتيوسيين سلبسطرس القبرسي وذويهِ . وقد ذكر الشهيدَ ابرهيم بن ديمتري بن يعقوب الدلّال المستشهد سنة ١٧٤٢ في عيد الاضحى فرثاهُ بقصيدة مطوّلة اوّلها (١ (من الكامل) :

يا صاحبي ما بالُ سكّان الحمى كلّا اراهُ والهاً يبكي الدما
أَتُرى جرى خطبٌ عظيمٌ ام قضي ندبٌ كريمٌ أَم رأَيتُ توهُّما
فأَجابني والدمعُ يسبقُ نطقهُ هلّا سمعتَ بشاهدٍ قد أَلَما
او ما علمت بانّ ابرهيمَ قد قتلوهُ منهاناً فعاد مكرَّما
ام أَنت يا هذا غريبٌ غائبٌ ابداً عَنْ اُورشليمَ لم تَدْرِ بما
إِخلَعْ نِعالك ثمَّ أَقبِل مُسْرعاً نحو الضريح ضريحَ من قد عُظِما
فأَتيتُ نحو اللّحد أَبصر ما جرى فرأَيتُ ما شرَحَ الصديقُ وأَلهما
قومٌ عيونهمُ تدرُّ بوادراً من حزنهم فكأَنهنَّ عيونُ ما

(١) وللخوري نيقولا الصائغ في ديوانه (ص٨٠) قصيدة في مديح ذاك الشهيد

ناديتُهم لا تحزنوا بل فـافرحوا ... انَّ الشهيـد بصبرهِ قد نال ما...

نال المواعيـد التي ربُّ السما ... عنهـا اشار لتابعيهِ مثلما

حيَّا الحَيـا حلباً وروَّى تُربهـا ... اذ دمُّ ابراهيم فيها قد هَما

هذا الذي ضاءت كواكبُ فضله ... فلـذاك عقلُ ذوي الغباوة أظلما

ما مات خوفاً من عذاب جهنّمٍ ... او رغبـةً ان يقتني ملـك السما

بل مات شوقـاً في محبَّة ربّـهِ ... ذاك الذي في عشقهِ قد أَلمَّـا

الى ان قال:

طوباهُ اذ حاز الإهانة ههنا ... وغدا بملك الطاهرين مكرَّما

طوباك ابراهيمُ يا من قد علا ... فوق العلى متشرّفاً متعظّما

طوباك فأسمع من اتى متوسّلا ... كن لي شفيعاً في النشور تكرُّما

يوماً أُنادي مادحاً ومؤرّخاً ... يا شاهدًا بالموت قد ورثَ السما

ولمَّا اتى جنَّاديوس مطران الروم الى حلب واغتصب كنيسة الكاثوليك سنة ١٧٦٦ قال انطون يهجوهُ (من الكامل):

أَذْروا الدموع على المصاب الجاري ... فلقـد اتانا من سماح البـاري

أَبدوا نحيباً لم يشاهَد مثلـهُ ... مع كثرة الاصوام والاسهارِ

قـد حلّت الارزاء في ساحاتنـا ... بسماجـة من كثرة الاوزارِ

وهي في نحو مئة بيت وختمهُ بقولهِ في الظالمين:

وَسْطَ الجحيم مقامُكم ابدًا الى ... دهر الدهور وآخر الأَعصـارِ

وكان انطون بيطار مقترناً بالزواج ماتت زوجتهُ الاولى لوسيا سنة ١٧٥٥ فرثاها بقصيدة طويلة تنبئ برقة عواطفهِ اوّلها (من الكامل) :

يا دهرُ أُقسمُ بالكليمْ رفقاً بذي القلب الكليمْ

لم يبقَ لي غيرَ الذي ابقيتَ من عظمٍ رميمْ

ومنها :

رحلَت وما نظرَتْ الى حالِ اليتامى واليتيمْ

بل احدقَتْ نظرًا الى النهجِ الموْدّي للنعيمْ

فكأنما زهدَتْ بنا وصبَتْ لمغناها القديمْ

والله يدعو من يشا الى النعيم المستديمْ

واقترن بعدها بزوجة اخرى توفَّاها الله بعد ستّ سنين سنة ١٧٦١ فرثاها ايضاً . وفي ديوانهِ اشارة الى بعض افراد اسرتهِ في مقدَّمتهم ابوهُ وامُّهُ لهُ فيها ابيات في تاريخ وفاتها . وكان لهُ عمٌّ في اللاذقيَّة اسمهُ نعمة الله بيطار قد هنَّأهُ ابنُ اخيهِ بمولد ابنه يوسف سنة ١٧٣٧ . وقد وجدنا في بعض المجاميع ابياتاً منسوبة الى ميخائيل بيطار الحلبي ولا شكَّ انهُ من انسبائهِ . ولم نقف على سنة وفاة انطون لكنهُ عاش الى ما بعد السنة ١٧٨٠ كما يظهر من بعض تواريخ ديوانهِ

﴿ديوانهُ﴾ وقفنا في حلب على نسخة من ديوانهِ منذ اربعين سنة فاستنسخناها واذا هي تحتوي على نيّف وعشرين قصيدة او قطعة شعريّة في معاني الشعر المختلفة من مديح ورثاء وهجو وتهنئة واوصاف وتواريخ . فمن مديحهِ قصيدتهُ في الوزير ابي بكر باشا الذي قدم حلب سنة ١١٧٥هـ (١٧٦١م) فتزيَّنت المدينة بقدومهِ (من الكامل) :

قِفْ في رُبى حلبٍ على أكمامها حيِّي منازلها بعَرْف خُزامها

بلدٌ اطاب الله حسن مناخها فزهت على ارض العراق وشامها

قد زانهـا ملـكُ الملوكِ بزينةٍ كُتبت بشائرُها على اعلامها
بصحيفة الزُّهرا ورَسْم عُطاردٍ . والمشتري يُملي على رسّامها
سرّ القلوبِ فاكثرتْ خير الدعا صَحّ الدجى عطفاً على ايّامها
لاسيما اذ خصّها بمدبّر يعطي الممالك رفعةً بنظامها
اعني ابا بكر الوزير فكم سمَتْ حلبٌ بهِ تعلو السما بمقامها
سعدتْ بهِ مذ حلّ طالعَ بُرْجها فغدا دوامُ السعد من أحكامها

وهي طويلة . ولهُ رائيَّة في مديح سعدالدين باشا افتتحها بقولهِ (من مجزوء الكامل) :

للسَّعْد في حلبَ البشائرْ ولقد بدا منهـا اشائرْ
قرّت عيونٌ بعد ان للنجم قد كانت تساهرْ
وتعوَّضت بدل المذلّة م والهوانِ بخير ناصرْ

وختمها بهذا التاريخ :

أرّختُ لا ريب يا للسعد في حلبَ البشائرْ

ولانطون بيطار جملة تواريخ قالها في امور جرت في ايّامهِ منها في وفيات بعض السادات كالسيّد اغناطيوس جربوع رئيس اساقفة حلب على الروم الكاثوليك سنة ١٧٧٦ وبعض اصدقائهِ كفتح الله بن شكري ارقش (١٧٥٥) وجرجي قز (١٧٥٨) ومنها في مواليد صغار او في عقاب بعض الاشقياء كباقي الدالي باش قاتل الحجاج (١١٨٣) قال فيهِ (من الخفيف) :

انّ باقي الشهيرَ بالآفـاقِ قد سقاهُ كأسَ المنيّة ساقي
قيل اين المصيرُ منهُ فأرّخْ قلتُ لا شكَّ في جهنّمَ باقي

وكذا قولهُ في شنق الشقي اليهودي كبرئيل العواني(١١٦٤هـ)(من المجتث) :

ابن الهلاك دَعَوْهُ   الى الهلاك المؤبَّدْ
في النار من غير شكٍ   تاريخهُ قُلْ تَخَلَّدْ

وارّخ رجوع السيد محمَّد طه زاده الشهير الحلبي وكان نُفي ظلماً سنة ١١٨٥ (من الكامل) :

ظنَّ العدى ان لا رجوع لغائبٍ   مذ أَظهروا ما في الضمائر كامنا
فازداد اجلالًا وعاد فأرّخوا   ها ردَّهُ الله بخيرٍ آمنا

وأرّخ عمارة بيت جديد (من الكامل) :

أَكرم بهِ بيتاً بأعلى سفحةٍ   فيهِ انتعاش الروح باللذّاتِ
فهو كفردوس السما ارّختُهُ   مأوى السرور وجامع النُّزهاتِ

ولشاعرنا ايضاً موشَّح قالهُ في مولد الياس انطون ابن جرجس عائده من زوجتهِ ساره بعد ان لبثت عقيماً عدَّة سنين سنة ١٧٥٢ (من الرمل) :

يا لَكَمْ جاد لنا ربّ السما   نعماً وافت بروح القُدُسِ
فلهُ الحمدُ على ما انعما   من غلام بهجةَ الدنيا كُسي

دور

حينما الربُّ لسارا قد نظَرْ   ولدت طفلًا بديعاً لا نظيرْ
وكذا راحيلُ من ربّ البشَرْ   جاءها يوسفُ بالخير بشيرْ
أَبشروا انَّ ليالينا غُرَرْ   وهب الله لنا الظبيَ الغريرْ

انَّ للهِ تعالى حكماً تُشرق الشمس بداجي الحندسِ
ما عليهِ من عسيرٍ كما وهب النطق لسان الاخرسِ

دور

لاتقل فيما جرى كيف ودَعْ من لهُ الامرُ وكن انت وديعْ
ليس أُذناي ثقيلات السمَعْ فاطلبوني تجدوا قال السميعْ
هاهو اليوم الذي الربُّ صنَعْ فافرحوا فيهِ فذا خير الصنيعْ
واشكروهُ عزَّ قلباً وفماً أن من يحمدهُ لم ييأسِ
بارئ الخلق اليهِ المنتهى موجد الكونين محيي الأنفسِ

وهي عدّة ادوار تشعر بتقى قائلها وجودة قريحتهِ

امّا آثارهُ النثريّة فنذكر منها هنا مثالاً وذلك جوابهُ الى الخوري نيقولا الصائغ الذي اشرنا اليهِ :

يقبّل البسيطة عبدٌ بين يدي الاب العام المحترم الخوري نقولا شرّفه الله تعالى أولى ما نطقت بهِ ألسنة الاقلام البديعة ، ونبتَ في رياض الافهام زهر بديعة . واستهلّت بهِ ابكار فرائد المغاني ، وتطرزت بهِ صدور الدفاتر بذكاء ابن هاني ، شكرٌ لمن وشّحنا ثوب ايضاح معانيهِ اللطيفة ، وشرّفنا بابداع علومهِ الشريفة ، وهذّبنا حسنُ النسق منهُ بنزاهتهِ عن هذه الدنيا الدنية ، وادبنا ببراعة الطلب منهُ واستعانته بمن يبلغ منهُ المنية ، وحمدٌ لمن احسن الاتباع باشتراكهِ في فضايل الاباء المكمّلين نوادر الحقيقة . ومدحٌ لمن رصع تسجيع اوزانه بدرر التشبيه ومساواة اهل الطريقة . اعني بهِ من أهديه تقبيل المبسم وهو الاب القانوني المكرم . والسيد الرئيس المفخم ركن الملّة الملكيّة ، والمعلم البار المتشرف بالدرجة الكهنوتيّة ، من شيّد اعمدة الدين ، واهدي بعلومهِ كثيراً من الضالّين ، الذي نظم هاتيك الدرر من كلامه ، ونثر جواهر العقيان من نظامهِ

وبعد المعروض لدى الحضرة العلية، والطلعة البهية ، اني في ابرك وقت واشرف ساعةٍ وردت علينا عزيزة مشرفتكم الشريفة ، وفريدة الفاظكم اللطيفة ، فلثمنا ختامها وفضضناها، وفهمنا رموزها ومعناها ، فكانت احلى من العافية للجسم السقيم ، والذّ من السِلْم بعد العذاب الاليم . فيا لها من جواهر اذا مسَّها مفتقر الى البيان اغناه جوهرها ، وخرائد جمعت بين الحسن والاحسان منظرها طيّبٌ ومخبرها

كتبتُ فلولا ان هذا محالٌ ... وذاك حرامٌ قستُ خطَّك بالسحرِ

فان كان زهرًا فهو صنعُ سحابةٍ ... وانْ كان درًّا فهو من لجّة البحرِ

فحلّيت لساني بعقود انشائها الدرّية، وأَطلعت في فلك المسامرة كواكبها الدرّية، ودعيت لكم بدوام البقاء، وعلو الارتقاء ، فحياكم الله واحياكم . وجعلنا لديكم من المنتمين، وقرننا في زمرتكم مع جملة الاباء القديسين

ولكن يا سيدي من اين للعبد ان يتشرف لمكاتبة مولاه ، ويفتخر بتذكره على من سواه ، وما هذا الّا من لطف المخدوم على الخادم ، ومن شيم اخلاق اهل المكارم :

تذكّرني مولاي لله درُّهُ ... وشرّفني حق حويتُ المراتبا

وكاتبني المولى باجمى كتابةٍ ... فكنتُ لهُ عبدًا فصرتُ مُكاتبا

وهل يمكنني يا سيدي ان املي كتاباً، او اردَّ جواباً، مع اني من المبتدئين العائزين، وفي قوة اهل الفصاحة معدود من جملة العاجزين ، وما اظنّ جنابكم الّا قصدتم تشجيعي، لتختبروا تسجيعي ، وتهدوني الى الطريق المستقيم، الذي حضرتكم عليهِ مقيم . فمن اين لي ان يتفسر هذا المنام، ويا حبذا ان صحّت الاحلام، ولكن الامر فريد ، والسير في طريقهِ بعيد:

عَنيتها بالرقمتَيْن ودارُها ... بوادي الغضا يا بُعد ما أَغنَاهُ

وارجو من الله جل شأنه ان يمنحني التيسير، وحاشا ان يكون عليهِ امر عسير، ومع هذا كلما حاولت ان ارد لكم جواب ينعقد لساني ، ويقصر عن السير في هذا الميدان عناني ، لعلمي انكم عمدة الفصحاء والمتكلمين ، وكنز الناظمين والمتعلّمين،

الى ان سهل الله ببلوغ الامل ، ورفعتُ عن جنـاني برقع الخجل، فعجبت من نفسي كيف تجرَّأت واهديتُ الصدف الى معدن الدُّرر، وقابلت بنفثة ماء بوادر المطر:

اَنّى أُقابِلُ بحرًا فاض لؤلؤُه بنفثةٍ من غدير الماء فيّاضِ
ام كيف أُرفلُ في ثوبٍ بهِ قصَرٌ من الفصاحة رثٍّ غير فضفاضِ

وما تجرَّأتُ على هذا الامر الَّا لعلمي انكم اهلٌ للكرم، وان العذر يقبل عن زكي الشيم ، وان تجـد عيباً فسُدَّ الخللا، ثم البدي لجنـابكم انني حثثتُ قريحتي الجامدة، واضرمت نار فكري الخامدة، لكي اتشرف في مديحكم بقصيـدة من نظمي لعلمي ان ذكركم يهذّبها، ومديحكم يؤدبها، وان كنت لست من فرسان هذا الميدان ، ولا من قليدة هذه العقيان، ولست من الخيل السابقة، ولا الجياد اللاحقة. لكنني اتبعت قول القائل:

اذا منعَتْك اثمارُ المعالي جناها الغضّ فاقنع بالشميمِ

وها عذري اوضح من الشمس المضيَّة ، اذ انني لا اعرف شيئاً من العلوم العربية ، سوى بعض العروض الاندلسية وقليلًا من الخزرجية ، وما عدا هذا وعزيز حياتك يا سيدي لم اقرأ شيئاً على استاذ انمـا اهوى مطالعـة الكتب كثيرًا ، واجهدُ ذهني لكي افهم منها قليلًا، وخاطري ابو عذرهِ، ومقتضَب حلوه ومرهِ، فاعذرني يا سيدي واغفر لي عن جرأتي هذه وسامحني بما نطقت في مديحكم. وما وفيت حقهُ حين قلت:

حيًّا الحَيا لِلَيـالٍ في رُبى حلبِ قضيتها مَرَحاً في غاية الطرَبِ
مرَّت بنا كوميض البرق مسرعةً وما انقضى وطري منها ولا اربي

الى ان قال :

فاقت بفردوسها كلَّ البلاد كما قد فاق مدحي لنيقولاوس النَّجِبِ
الناشر العلمَ نشر الزهد مع رهبٍ والطاويَ الجهل طيَّ الكبر والعجبِ

مذ قد براهُ الـه الخلق منفعـةً بصدق رشدٍ لاهل الغيّ والكذبِ
اعطاهُ من روحهِ نطقاً وشرّفـهُ او ما تراهُ اثار الكون بالخُطَبِ
اعزّه الله بالكهنوت تكرمـةً بروح قدسٍ عليهِ منهُ منسكبِ
فريدُ هذا الورى علماً ومعرفـةً عـلّامة الملّتين العُجم والعربِ
حديدُ ذكرٍ بسيطُ العلم وافرهُ سريع نظمٍ بديهٍ كاملُ الادبِ
اللوذعيُّ الاريب النَّدب مركزهُ اعلى العلى يزدري بالسبعة الشهبِ
تخذتُ مدحتهُ دون الورى شرفي دهرًا ومدحُ سواه ليس يجمل بي
وجاء مدحي لـه نقشاً على حجرٍ اضحى كوضع الهِنا في موضع النُّقبِ
طيٌّ ونشرٌ وانشاءٌ لـه وكـلّا للغيِّ والرشدِ والايمان والرهبِ
رَوى اراضي قلوبٍ مَحْلةٍ بندًى علمٍ ووعظٍ وزهد منه كالسحبِ
اذكى مصابيح دين الحق ثم هدًى الى الهُدَى بضياها قلبُ كل غبي
مدحي تشرَّف في أبن السادة النُّجُبِ م أبن السادة النجب بن السادة النجبِ
يا ذا التقى يا فريـد العصر يا املي هل ملتقى انني في غاية الوصبِ
من نعمة الله قـد وافيتَ ذا نعمٍ يا خير إبنٍ ابٍ من خير إبن أبِ
رفعتَ رايات امر الله منتصبـاً لـنشر دينٍ بعـلم غير منشطبِ
كم قد اضا منك ديواناً بنور تقىً أنَرْتَ فيهِ دجى الآثام والنوبِ
وان يَكُنْ للسوى كتب ملَفَّقةٌ فـان في الخمر معنًى ليس بالعنبِ
خذها اليك وقد جاءت مطوقةً بعِقْـد درٍّ مديح فيك منتخبِ

مني عليك سلام الله ما طلعتْ ... شمسُ النهار ولاحت سبعة الشهبِ
وما ابتدى بعد حسن الختم منشدُها ... حيًّا الحيا لِلَيالٍ في ربى حلبِ

١٧ مكرديج الكسيح

﴿ اخبارهُ ﴾ هذا ايضاً من جملة اهل الشهباء الذين نبغوا في القرن الثامن عشر ويُعَدّ من اركان النهضة الادبية التي انبعثت في ذلك العصر ومن الشهباء انتشرت في باقي انحاء سوريّة ولبنان ثم في القطر المصري

اخبار مكرديج الكسيح كأخبار رصفائهِ السابق ذكرهم لا تزال مطويّة في زوايا النسيان . فدونك كلّ ما امكننا ان نستخرجهُ من ضمن كتاباتهِ ومكاتبات اهل عصره

هو مكرديج بن عبدالله المخلّع او الكسيح وُلد في كلّس بلدة قريبة من حلب في اواخر القرن السابع عشر وانتقل في حداثتهِ الى الشهباء وكان ارمنيّ الاصل كاثوليكيّ المذهب ومكرديج اسم ارمني معناهُ يوحنّا المعمدان . امّا اسمهُ الكسيح او المخلّع فالظاهر انهُ لقبٌ يدلُّ على مرضٍ مزمن اصابهُ في قسم من حياتهِ اضطرّهُ الى السكون في بيتهِ دون ان يمنعهُ عن الدرس والتأليف . وقد عمّر المترجم طويلًا ولم نقف على سنة وفاتهِ والمرجح انها وقعت في القسم الثاني من القرن الثامن عشر

﴿ آدابهُ وعلومهُ ﴾ كان مكرديج متضلّعاً من آداب عصرهِ بارعاً في العلوم . فوجد في سقمهِ باعثاً لخدمة معاصريهِ بالتآليف . وقد سردنا قائمة تآليفهِ في كتابنا المخطوطات العربيّة لكتبة النصرانيّة (ص ١٩٥ـــ١٩٦) . فمنها مصنّفات تدلُّ على عظم تقواه وورعهِ مثل كتابهِ ظلّ الكمال في تثقيف الاعمال في فضائل السيّد المسيح وتعاليمهِ . وكتابهِ تردُّد النفس مع الله . وكتابهِ التبر المكنوز لمنفعة الكاروز وضعهُ لافادة الواعظين . وكتابهِ الطبّ الروحاني في الندامة والاعتراف . وخصوصاً كتابهِ

مصابيح الاحكام الجليَّة في حلّ المشكلات الانجيليَّة حلّ فيهِ ١٥٠ مشكلًا كتابيًا

ولهُ تآليف أُخرى ادبيَّة منها كتابهُ ريحانة الارواح وسُلَّم الآداب والصلاح ألَّفهُ السنة ١٧١٨ في ١٢ فصلًا ضمَّنها حكمًا في الفضائل الادبيَّة والزهديَّات نقلها عن الاسفار المقدَّسة والآباء والفلاسفة والشعراء ما يشهد على سعة معارفهِ وكثرة مطالعاتهِ

وقد أحبَّ ايضًا ان يخدم اللغة العربيَّة بتأليف كتاب جليل واسع الموادّ دعاه كتاب الاهرامات يبلغ في نسخة مكتبتنا الشرقيَّة نيفًا وسبعمائة صفحة قسَّمهُ الى ثلثة اهرام تشبيهًا باهرام الجيزة في مصر . افرد الهرَم الاوَّل للمفردات العربيَّة عن السماء والموجودات العلويَّة والافلاك والمظاهر الجوّيَّة والمواليد الطبيعيَّة والعالم المَدَني في ٩٣ بابًا . وخصّ الهرم الثاني باسماء آلات الصنائع والمهن وادوات الحروب في ٤٧ بابًا . وروى في الهرم الثالث المفردات المختصَّة بالعلوم اللغويَّة والادبيَّة والفلسفيَّة والرياضيَّة والطبيعيَّة والفرَق الدينيَّة ومساجدها وفي عواقب الانسان والعالم الآخر كجهنَّم والشياطين الخ . فهذا التأليف جدير بأن يُنشر بالطبع لكثرة فوائدهِ

﴿ رسائلهُ النثريَّة وشعرهُ ﴾ شُغِف مكرديج الكسيح بالكتابة وقد تُروى لهُ رسائل مسجَّعة منمَّقة كرسائل ادباء عصرهِ التي سبق لنا ذكر بعضها في التراجم السابقة وقد اطرأها الخوري نيقولاوس الصائغ في بعض كتاباتهِ التي وجَّهها اليهِ سنة ١٧١٠ وطُبعت في آخر ديوانه (٢٨٧ــ٣٠٠) ويدعوهُ هناك « بتاج الادباء الراغبين وسراج النجباء الطالبين الشماس مكرديج الكسيح جوابًا لكتابٍ ارسلهُ اليهِ» ويعظّم في رسالتهِ فضل الكسيح ويشيد بسعة علومهِ وآدابهِ فيمدحهُ نثرًا وشعرًا مديحًا بليغًا ويعزّيهِ بوفاة اخيهِ يوسف ويحثُّهُ على الصبر في اوجاعهِ ويذكّرهُ بفضائل والدهِ التي ورثها ليتشبه بها في حياتهِ . وهي رسالة بديعة تبلغ ٢٠ صفحة

ولمكرديج الكسيح شعر روى هو منهُ شيئًا في كتابهِ ريحانة الارواح فمن ذلك قولهُ يتشوَّق الى السماء (من الطويل) :

أَثِيرَ ٱلسَّمَاءِ هَلْ إِلَيكَ طَرِيقَةٌ أَصِيرُ بِهَا مَعَ غَايَتِي وَمُنَائِي
اليكَ مُنائي ظَلَّ قلبي مُشَوَّقاً ولكن خُطائي في قُيود خَطائي

وقال في ما يُصيب النفس من تقلّبات الدهر (من الطويل):

قد كانتِ النفسُ كالفِرْدَوْسِ مُزْهِرَةً واليوم بورٌ وُحوشُ الجنِّ تأويها
تَبًّا لطبعٍ غدا كالشَّوكِ مَنْبَتُهُ ان مالتِ النفسُ يوماً ظَلَّ ينكيها

وقال يصف شدائد الحياة (من الطويل):

لقد خُضتُ دون الحقّ كلَّ بَليَّةٍ يهيمُ بها قَلْبُ الزمان على مثلي
وذقتُ مِرار الدهر والموت دونهُ ودُستُ شَواظَ العَذْلِ يفترُّ عن شغل
وهمتُ بدين الله والهولُ ضمنهُ وفيهِ أرى الاهوال تَعنو الى قَتلي

وقال ايضاً يصف بلاياهُ (من الطويل):

سقيمٌ سقاهُ الدهرُ كلَّ بليَّةٍ فأضحى عديماً في مثالٍ مُنَفَّسِ
سطيحٌ على الغبراء تحت قبابهم محيطٌ بأفلاكِ العليِّ تَفرُّسي

ولهُ ايضاً في منفعةِ التجارب (من الطويل):

لا تَخْشَ من رَيبِ الزمانِ فانهُ دليلُ انتخاب بل تهلَّلْ اذا نَزَلْ
وقبلكَ ابراهيمُ فَرَّ ويوسفٌ ترامى بأمرِ شاءهُ ساكنُ الأَزَلْ
وكم من كرامٍ قد أُهينوا وشُرِّدوا كَنَيْتَ عَروضٍ قد تَخَبَّلَ وانْخَزَلْ(١

(١) اشارة الى ما يقع في شعر بعض الكتبة من الجوازات غير المأنوسة كالخبل والانخزال

وقد قال في اختيار الاصدقاء (من الطويل) :

تخيَّرْ صديقاً مثل ما وافقهُ الذي يقولُ إلهُ العرشِ ضمنَ الشريعةِ
فرُبَّ حقيرِ الشأنِ يُنجي وشاهدي عُوَيدٌ[1] حمانا من جحيمٍ تلظَّتِ

فهذا بعض ما بقي من نظمهِ ولعلَّ عند أدباء الحلبيين ما هو اوسع من ذلك فروينا ما وقع منهُ تحت يدنا

١٨ الشماس عبدالله زاخر

لم يشتهر عبدالله زاخر بنظم الشعر وانَّما كان احد أدباء الشهباء الذين ساعدوا بنفوذهم وقلمهم على النهضة الجديدة التي نشأت بين نصارى حلب لتعزيز اللغة العربية واعلاء منارها

﴿ نبذة من اخبارهِ ﴾ افادنا عبدالله زاخر في مفكرة مخطوطة عن اصله واخباره[2] نقتطف منها ما يلي : هو عبدالله بن زخريَّا بن موسى وقد لُقّب بالزاخر اشارةً الى اسم ابيهِ وتنويهاً بوفرة تآليفهِ . وهو ابن عمّ الخوري نقولا بن نعمة ابن موسى . قُتل جدُّهما في حلب بامر واليها لوشاية وشى بهِ اعداؤهُ اليهِ فانتقل ولداهُ زخريَّا ونعمة الى حماة لائذَين باقاربهما وهناك وُلد لهما نقولا بن نعمة وعبدالله بن زخريَّا او زاخر . كان مولد عبدالله سنة ١٦٨٠ فنشأ في حماة ثم عاد بهِ والدهُ الى حلب في اوائل القرن الثامن عشر فدخل مدارسها وبرع في دروسهِ ثمَّ تخرَّج على الشيخ سليمان النحوي من ادباء الاسلام مع غيرهِ من النصارى كجبرئيل فرحات وابن عمّهِ نقولا وعبدالله قرألي وغيرهم

وكان اهل عبدالله من الروم الارثذكس وانَّما تقرَّبوا الى الكثلكة بما جرى

---

1) ويريد بالعُوَيد عود الصليب الذي بهِ حصل الخلاص للعالم من نير ابليس

2) راجع مجلَّة اصداء الشرق (Echos d'Orient) ١١[١٩٠٨] : ٧١-١٨ و٢٧١

وقتئذٍ من الحركة الدينيّة في حلب بهمّة المرسلين . وتفرَّغ عبدالله لــدرس التعاليم الدينيّة واجتمع ببعض المرسلين الذين وطّدوهُ في الايمان الكاثوليكي وقد اشتغل معهم في حلب اوَّلًا ثمَّ في لبنان لاسيما الاب بطرس فروماج اليسوعي الذي كان يعرض على عبدالله تآليفهُ فينقّحها . الى ان وقع بينهما نفور بسبب الراهبات الحلبيّات الباسيليّات اللواتي اتّخذنَ اليسوعيين اوَّلًا كمرشدين وتبعنَ قانون القديس فرنسيس دي سال مع غيرهنَّ من المترهّبات ثمَّ فُصلنَ عنهنَّ بأمر الكرسي الرسولي ليحافظنَ على طقسهنَّ وكان عبدالله زاخر اكبر الساعين بذلك . وقد قضى السنين الاخيرة من حياتهِ في دير مــار يوحنّا الصابغ في الشوير زاهدًا بالدنيا وهناك أدار مطبعتهُ الشهيرة فنشر فيها بالطبع المتقن عدَّة تآليف سردناها سابقاً مع تاريخ تلك المطبعة (المشرق ٣ [١٩٠٠]: ٣٥٩ــ٣٦٢) الى ان توفّاهُ الله في ١٠ آب من السنة ١٧٤٨

﴿ آدابهُ وتآليفهُ ﴾ قد عدَّدنا في كتابنا المخطوطات العربيَّة لكتبة النصرانيَّة (ص١٠٨ــ١٠٩) تآليف الشمّاس عبدالله زاخر ومعظمها كتب لاهوتيَّة جدليَّة أثبت فيها حقائق الدين الكاثوليكي وردَّ على من نكرها او ناصبها من ارمن ويعاقبة ونساطرة وبروتستانت ولاسيما من روم ارثوذكس فتتبّع اضاليلهم وفنَّدها تفنيدًا قاطعاً ينبئ بمعارفهِ الواسعة للاسفار المقدَّسة ولاعمال الآباء وتاريخ الكنيسة . وهي تنيف على عشرة تآليف ضخمة . ولهُ ما خلا ذلك تفسير الايساغوجي لاثير الدين الابهري فدعاهُ شرح الاصول الابهريَّة وقد عُني ايضاً بتعريبات او تصحيحات شتى لكتب روحيَّة

﴿ شعرهُ ونثرهُ ﴾ يُنعت عبدالله زاخر بالشاعر في بعض التقاريظ التي قيلت في وصفهِ على انّنا لم نقف لهُ الّا على ابيات نظمها جواباً على ما كتبهُ اليهِ الخوري نقولاوس ابن عمّهِ وكان عبدالله بلغهُ مرضهُ فاهداهُ فنجان قهوة فشكرهُ الخوري بهذه الابيات وصحبها بهديَّة :

لقد عمَّت نوالُك باختصاصٍ عليلًا خصّهُ الداءُ الاليمُ
فكان دواءُ دائيَ منك قَهْوى لها حُسْنٌ بهِ يَشفى السقيمُ
فواصلُك الجزاءُ وليس فضلٌ لنا والفضلُ فضلكمُ العميمُ

واغناني الهي الآن عنها لانَّ الامرَ ما قال الحكيمُ
شرورٌ لا تدومُ اجلُّ خيرًا من الخير الذي هو لا يدومُ

فاجابهُ عبدالله زاخر بهذه الابيات (من الوافر) :

لقد وافى عقيمَ الفكر نظمٌ بديعٌ دونهُ الدرُّ النظيمُ
واسبغتَ الجزاء وليس فعلٌ يحقُّ لـهُ جزاؤكمُ العظيمُ
ولكنَّ الكريمَ بهِ طباعٌ سموُّ المجد والبذلُ الجسيمُ
فشكرًا عُدَّ ما اوهبتَ حبًّا وحمدًا كلّما هبَّ النسيمُ

امّا نثرهُ فيمتاز بسلاستهِ وانسجامهِ وقوّة برهانهِ . ولا تخلو مقدّمات كتبهِ من مسحة من البلاغة حلّاها بالسجع ومنها يُعرف اقتدارهُ على الانشاء البديع

١٩ نعمة بن توما الحلبيّ

هذا ايضاً احد نجوم تلك الثريّا النصرانيّة المنيرة التي سطعت ضياؤها في الشهباء في القرن الثامن عشر فاستوقفت نظر المتشوّفين لنورها

سبق حضرة المنسنيور جرجس منش فكتب فصلًا ممتعاً في المشرق (٥[١٩٠٢]: ٣٩٦-٤٠٥) روى فيهِ اخبار نعمة الله بن توما الحلبي نقتبس منهُ المعلومات الآتية :

﴿ اصلهُ ومنشأهُ ﴾ هو نعمة بن الخوري توما الحلبي . وُلد في الشهباء في اواخر القرن السابع عشر وهو من طائفة الروم الملكيين وكان ابوهُ الخوري توما احد كهنتهم يُعرف بفضله وتقواه . والمرجّح انهُ عدل مع اهل بيتهِ الى الدين الكاثوليكي في ايّام البطريرك اثناسيوس دبّاس . وقد حصل وقتئذٍ ارتداد كثيرين من الروم الى الكثلكة

فترعرع الفتى نعمة ومـال الى درس العلوم برغبةٍ واتقنها تحت مراقبة معلّمين وطنيين ثم احكم فنون العربيَّة من فصاحة وبيان وبديـع وشعر على الشيخ سليمان النحوي فبرع في الكتابة

﴿ سياحاتهُ وتأهلهُ ﴾ دخل نعمة في جهاد الحياة ولقي مع مواطنيهِ المرتدّين الى الكثلكة عَنَتاً وشدائد زادتهُ رسوخاً في ايمانه . وتعاطى اوّلاً اعمال التجارة وخرج الى انحـاء الاناضول فلم يحمـد اخلاق اهلها ومعاملاتهم وممّا قالـهُ يهجو مدينة طوقات (من السريع):

وبلـدةٍ ما شامَهـا ناظرٌ مع اهلهـا الّا وعنها نَفَرْ
كانَّما الاسطبلُ تكوينُهـا واهلُها فيهِ جلوفُ البَقَرْ

ثم ساح مرّةً أُخرى الى اصقاع الشام واجتاز بيروت ووصف احوالها وزار قنصلها الفرنساوي وهو يومئذٍ الشيخ نوفل الخازن الذائع الشهرة فتحفّى بهِ وبالغ في اكرامهِ كما يلوح من رسالتين وجّهها نعمة اليهِ شاكرًا لهُ جميلهُ . وفي هذه السياحة قصد زيارة بلدة صيدنايا ليكرم في ديرها صورة العذراء العجائبيَّة وقد نظم في مديحها شعرًا لطيفاً من ذلك قولهُ (من الرمل) :

أُنخ حصنَ البكر وأُدخل ضارعاً باتّضاع يرفـع المتّضعـا
لُذْ بهـا تحظى بنصرٍ عـاجلٍ فاز مَرْءٌ لِحماهـا أسرعـا
كم نحاهـا عـائمٌ في اثمهِ واتاهـا قـاصدًا مستشفعا
فتزكّى من ذنوبٍ جمّـةٍ بانسحاقٍ لبُّهُ قد صُدعـا
فاليكِ يا ملاذَ الخَلق قـد جئتُ ارجو العفو منك طمعا
فلَكَمْ مثلي اثيمٌ قـد حظي منكِ بالغفران لمـاَّ ضرعـا

وكنّا وقفنا سابقاً على رحلة احد الحلبيين من الشهباء الى القطر المصري (المشرق

٥[١٩٠٢]: ١٠٣٠) وكانت غفلًا من اسم كاتبها فظنَّنا انها لنعمة بن توما ثمَّ تحقَّقنا بعد ذلك انها لمواطنهِ ابرهيم الحكيم فنشرناها باسمهِ(المشرق ١٠[١٩٠٧]: ٥٥٩الخ)

ثم رجع نعمة الى وطنهِ حلب وتأهَّل فيها ورزقهُ الله ولدين جبرائيل وتوما لولا انَّ المنيَّة اخترمت ابنهُ جبرائيل في ريعان شبابهِ فبكاهُ ونظم فيهِ المراثي اللطيفة كقولهِ (من مجزوء الرمل) :

يا الهي حانَ حَيْني حينما الصبرُ فُقِدْ
يا الهي ضاق ذَرْعي وخَلا مني الجَلَدْ
يا الهي ضاع رُشدي واذّكاري قد خمَدْ
غاب جبرئيلُ عني يا لِكَرْبي وشرَدْ
آهِ كم اوسَعَني النا سُ عليهِ من حَسَدْ
كم وكم من قائل ذا م الشبلُ من ذاك الأسدْ
يا الهي هل يُرَجَّى منهُ عودٌ او يُرَدّ
انَّ هذا لَمحالٌ لا يرَجيهِ احدْ
ليس لي الّاكَ يا مَن عندهُ حلُّ العُقَدْ

وزاد الهُ بابتعاد ابنهِ توما عنهُ مهاجرًا الى القطر المصري سنة ١٧٥٥ فقال ابوه مضمّناً (من الطويل) :

ولمّا قضى التوديعُ فينا قضاءهُ وزفَّت مطايا البين رَكْبَ الترحُّلِ
فقلتُ لأَصحابي والدمعُ قدجرى «قفوا نبكِ من ذكرى حبيبٍ ومنزلِ»

وأُصيب نعمة بشدائد وضنك العيش حتى اضطرّ ان يبيع اعزّ ما كان لديهِ اعني كتبهُ التي عدَّد نوادرها في قصيدةٍ تجدها في المشرق(٥[١٩٠٢]: ٤٠٠) ولم تُعرف سنة وفاة المترجم والمظنون انهُ توفي نحو السنة ١٧٧٠

﴿ آدابهُ ﴾ ان الشهرة التي حازها نعمة بن توما بالكتابة والانشاء البليغ لفتت اليهِ نظر البطريرك اثناسيوس دبَّاس المقيم في حلب فاستدعاهُ ليكون كاتب اسرارهِ ومنشئ رسائلهِ . فتولَّى ذلك المنصب في عهدهِ ثمَّ في عهد خلفهِ البطريرك مكسيموس حكيم وانشأ باسمهما عدَّة رسائل ومناشير ومذكرات ووثائق وصكوك توجَّهت الى رومية الى الاحبار الرومانيين والمجمع المقدَّس والى السفراء الفرنسويين في الاستانة والى غيرهم وقد اجاد وافاد بجمعها في مجلَّد خاصّ وسمهُ «بعجالة الطريق لمن رضي بتقليد التلفيق» منهُ نسخة واسعة وصفها جناب الاديب حبيب افندي الزيَّات وحصل عليها المسنيور جرجس منش (المشرق ٥[١٩٠٢]: ٤٠٠—٤٠٠) وفي مكتبتنا الشرقيَّة منهُ نسخة مختصرة في ١٤٢ صفحة . هي كتاريخ الكثلكة في حلب في القرن الثامن عشر وما نال المرتدّين الى الدين الكاثوليكي من الاضطهادات من قبل سلفسترس القبرسي وذويهِ . باشر نعمة بجمع هذا الكتاب النفيس في السنة ١٧٥٩ وتتبَّع تدوين كتاباتهِ الى السنة ١٧٦٧

﴿ شعرهُ ﴾ لنعمة بن توما ديوان شعر واسع لدينا منهُ نسخة تستغرق ١١٧ صفحة لهُ فيهِ بين قصائد ومقطَّعات ما يبلغ مائتَي منظومة في كل ابواب الشعر من مديح رجال عظام كأحبار كنيستهِ وارباب الدولة والسادة المسلمين والاصدقاء ومن مراثٍ وتهانئ وهجو الى غير ذلك من الاغراض . وبينها قسمٌ كبير في المعاني الروحيَّة كمديح السيد المسيح والعذراء مريم ووصف الاعياد السنويَّة والزهديَّات وهي احسن دليل على ما طُبع عليهِ من رُوح التقى والرسوخ في الدين الكاثوليكي . وها نحن نروي نخبة من الديوان المذكور ممَّا يُستدلُّ بها على جودة قريحتهِ . فمن ذلك قولهُ يرجو من الله التوبة (من مجزوء الكامل):

مَن لي بتوبة خاشعٍ او كيف مثلي يقتنيها
كم قد وعدتُ وعُذتُ عن وعدي وكم عربدتُ فيها
ورجعتُ كالكلب الكلو ب لقَيئهِ رجعاً كريها
آهاً لتفريطي بها من بعد تعويلي عليها

ما لي اليها مُوصِلٌ إلّاكَ يجذبني اليها
ولقد اتيتك راجياً من فيض جودك ابتغيها
يا ليتني احظى بخمرةِ حبّها او اجتليها
واذوق عَذْب رحيقها م الممزوج مع صَهْباء فيها
يا ربِّ هَبْني توبةً تُرْضيك والعزمُ يَقيها
أنعِم عليَّ بصدقها مع حُسن خاتمةٍ تَليها

وكتب يهنئ المفتي نعمة الله افندي جلبي كواكبي زاده لرجوعهِ الى حلب ظافرًا باعدائهِ (من السريع):

يا كوكبَ الشهباء تِهْ واتَّئدْ على السوى فالصبحُ يمحو الظلامْ
لولا رآكَ الله اهلًا لَما اعطاكَ ما سُدتَ بكلّ الانامْ
مرجّعاً كيد الاعادي الى نُحورهم نصرًا لكم والسلامْ

وكتب تحت ايقونة تمثل مريم العذراء اقتناها لذاتهِ (من الوافر):

اليكِ يا ابنةَ الآب السماوي وامَّ الابن من غير ارتيابِ
وقبَّةَ عهد روحها المعزّي مَعين عواطفِ النعم العِجابِ
اقدّم رسم شخصك كي اراكِ بهِ ما دمتُ في هذا الإهابِ
ارجّي بعدَهُ منكِ وصولًا اليك عسى اراكِ بلا حجابِ

وقال في صديق لم يثبت على صداقتهِ وتغيَّر عنهُ (من الوافر):

رجوتُك لا عدمتُ سواكَ ظنًّا بأنّك من جهابذةِ الرجالِ
فصحّ بانَّ بعض الظنّ اثمٌ لِما عاينتُ منك من الخِلالِ
بوعدٍ لا وفاء لهُ وكَذْبٍ وتسويفٍ بآمال المُحالِ
فلم أرَ من رجائي غيرَ اني رجوتُ الوَصْل من صَرْم الحِبالِ

وقال يقرّظ كتاب عبدالله زاخر الذي ألّفهُ ردًّا على اليــاس فخر (من مجزوء الكامل) :

لله درٌّ من كتا ب ساطعٍ بالعلم زاخرْ
ابدى لنا برهانُـهُ خِزْيَ ابنِ فخرٍ بابنِ زاخرْ

وقال يؤرّخ (سنة ١١٥٤ هـ) استشهاد ابرهيم ابن ديمتري يعقوب الدلّال الحلبي. (من مجزوء الكامل) :

قد نال ابرهيم اكـــليلَ الشهادة والسّنا
نادت ملائكة العلا تاريخه بلغ المُنـا

وقال يذكر الموت وغرور الدنيا (من الكامل) :

وردَ المَنونُ فاين يا نفسِ المفرّ والموت سلّ عليكِ صارمَهُ الذكرْ
هذه هي الدنيا التي ما شامها ذو فطنةٍ الّا وعنهـا قـد نفرْ
ولقد عرفنا غرّها وغرورَهـا منـذ الصِّبـا ومرور ايّام الصِغرْ
فارتدّ عنها يا اخي ولا تكنْ ممّن يُخالُ بانها تبدي الغُررْ
لا ترجُ منها الوصل في لذّاتها كلّا ولا مـا قلّ منهـا او ندرْ
فاذا اتتك بصفو عيشٍ مرّةً فاعلم بانك عاجلًا سترى الكدرْ
هذه هي حالاتها وصروفها ومصـيرهنّ الى المماتِ المنتظرْ
فعليكِ يا نفسِ الرجوعُ الى الذي نجّاكِ قبلًا من لظى هـذا الشَّررْ
واذري الدموعَ سخينةً عمّا بـدا من قبحِ سيركِ في قذى ذاك القذرْ
واستدركي العَوْد اليهِ قبل ما يأتي المَنونُ وينقطع فيهِ الوترْ
واستشفعيهِ بامّـهِ البكر التي هي ملجأ الخاطي تقيـهِ من ضررْ
فلَكم اتاها مَن علَتْهُ ذنوبهُ فارتدّ ذا طهرٍ نقيًّا من وزرْ
حاشا حِماها ان تردّ نزيلها ذا خيبةٍ من رفدهـا مُقْصًى مُمرّ

وقال بديهاً لمّا اتاهُ بعض اصحابهِ واردين من الجبا فبشّروهُ بانقطاع الطاعون (من مجزوء الكامل):

اهلًا وسهلًا مرحبا … بالقادمين من الجبا
ومبشّرينا عنوةً … بزوال ايّام الوبا
من فيض جودٍ قادرٍ … بسَلْب ما قد أوجبا
ورحمةٍ علويَّةٍ … تُريحُ عنَّا الغضبا
أكرِمْ بهِ من قادمٍ … ابدى البشائر مُعْرِبا
قد صحَّ في مُقْدَمِهِ … قولُ الرسول مُرَتَّبا
اهلًا بأرجل مَن يُبشّر … بالسلامة عن نَبا
فَلْيَجْزِهِ الرحمانُ من … خير الجزا ما استصوبا
بشفاعة البكر التي … تعلو الملائك مَأربا
فلها السلام مؤبَّدا … ما رنَّحت ريحُ الصَّبا
واتى النذيرُ مبشِّرًا … بزوال ايّام الوبا
اذ قيلَ في استقبالهِ … اهلًا وسهلًا مرحبا

وفي تلك سنة الطاعون ١٧٦١ انتقل في حلب الى جوار ربهِ الاب اليسوعي فرنسيس كريسيت (François Cruisset) المرسل الرسولي مات شهيد محبّتهِ في خدمة المطعونين فقال نعمة بن توما يؤرّخ وفاتهُ (من الكامل):

يا من أحبَّ الله دون ذاتهِ … لعبيدهِ متبرّعاً بحياتهِ
ليُرى كسيّدهِ الذي لمَّا افتدى … اغنامَهُ احياهمُ بمماتهِ
فيقال هذا العبدُ حقًّا انهُ … يُشبه مولاهُ بجدّ صفاتهِ
وهو فرنسيسُ اليسوعيُّ الذي … أدّى حساب الله عن وزناتهِ
ومضى ليقبض اجرهُ مثل التي … قد حازها من فَيْض جود هباتهِ

أكرم بها من اجرةٍ علويَّةٍ وردت توُرِّخ حقَّ مرغوباتهِ

ونختم هذه المنتخبات بابيات قالها في مطابقة ارادتهِ للمشيئة الالهيَّة وبها اعرب عن تُقاهُ وصبرهِ على آلام الحياة (من الخفيف) :

يا الهاً لهُ القضا والتقاضي انا راضٍ بكلّ ما انت راضي

عبدُ رقٍّ اسيرُ وَصمةِ ذَنبٍ يرتجي من رضاكَ حسن التغاضي

ذبتُ شوقاً الى رضاكَ واني خائفٌ من لقاكَ في إعْراضي

كم توالت جرائري وذنوبي يوجبُ العدلُ حدَّها بانقباضِ

فلايٍّ فراري من حُكم عدلٍ تقضي أحكامهُ بكبح المواضي

ليس الّا لرحمةٍ اوسعتْني منك لطفاً أيا سريع التراضي

واختفائي بحصنِ قلبٍ جريحٍ يرحضُ الإثمَ بالدم المستفاضِ

فامزُجِ العدلَ سيّدي برضاءٍ يقتضي رأفةً لحلّ اعتراضِ

أَعطني منك نعمةً واْجتذبني لقَبولٍ بكل ما انتَ قاضي

ورضاءٍ يزينهُ حسنُ صبرٍ لم تَشبْهُ وساوسُ الافتراضِ

كي أُرى في هداكَ اعظم صَبٍّ راضياً منك بالذي انت راضي

ولنعمة بن توما ما خلا القصائد رسائل ادبيَّة اثريَّة مسجَّعة يتخلَّلها الشعر منها رسالة طويلة وجَّهها الى القس جبرائيل فرحات اذ كان راهباً في لبنان في دير ماري اليشاع افتتحها بقصيدة اوَّلها (من الخفيف) :

يا نسيماً سقى الحمى ثمَّ حيَّا بسلام منازلَ الاحبابِ

وسما رقَّةً ولطفاً فأذكى بشذا عرفهِ نواحي الهضابِ

ضمَّنها من العواطف ارقَّها ومن آيات الثناء اصدقها وقد نشر معظمها المنسنيور منش

في المشرق. ولهُ رسالة اخرى نثريَّة وشعريَّة كتبها باسم البطريرك اثناسيوس يهنئ بها نقولا بك لتعيينهِ والياً على الفلاخ اوَّلها: « الحمد لله الذي احسن نظام العالم باصالة رأي الملوك القويم، وايَّد هذا النظام بالهامهم السلوك في ترتيبهِ على النهج المستقيم، وانهض هممهم الى القيام بحفظ المعاقل والممالك، والى حراسة البلاد من خطر المظالم والمهالك...»

٢٠ ابن افرنجية

انَّ القلادة الادبيَّة التي ازدان بها جيدُ الشهباء في القرن الثامن عشر عند نهضتها المشكورة يجب ان يُنظم فيها شاعر آخر عثرنا على آثاره عند احد اصحابنا جناب الاديب اسكندر صافي يوم اجتمعنا بهِ في لندن سنة ١٨٨٨ . فأطلعَنا جنابهُ على مجموع مخطوط عنوانهُ «المجموع المنتظم من فرائد الكلم» لمؤلفهِ ديده كوز (Didacus) بن انطون افرنجيَّة كتبهُ سنة ١٧٨٠ كما ورد في آخرهِ. وقد افردنا لذكره مقالة في المشرق سنة ١٨٩٩ (٢ : ٤٤٢ و٤٩١) فنشرنا قسماً مما اودعهُ الكاتب فيهِ من الحكم والامثال والنوادر والفكاهات والمنتخبات الشعريَّة فلا حاجة الى تكرارها هنا

وانما وجدنا في هذا المجموع قطعاً شعريَّة من نظم المؤلف فلا بُدَّ من ان ندرجهُ في سلك شعراء النصرانيَّة الذين نسعى باحياء ذكرهم

وكنَّا نودّ ان نورد شيئاً من اخبار هذا الشاعر ولكن لسوء الحظّ لم يسَعْنا وجود شيء منها كما لم نجد الَّا اليسير الزهيد من تراجم الشعراء السابق ذكرهم

وغاية ما نعرفهُ عن ابن افرنجيَّة انهُ كان حلبيَّ المولد والمنشأ من الطائفة المارونيَّة ومن اسرةٍ كريمة يدلُّ اسمها على اصلها ولعلّها اقتبَستهُ من الصليبيين في القرون الوسطى. ولا يزال من هذهِ العائلة بقايا في بلدة اهدن. والمرجَّح ان فرعها الحلبي انتقل من لبنان الى حلب مع غيرهم في اواسط القرن السادس عشر على عهد السلطان سليم الثاني

امّا شعرهُ فهذا بعض ما ورد منهُ في المجموع المذكور قال في من رفعهُ الدهر بعد الذلّ (من الكامل) :

لا تعجبنَّ بطالبٍ نال العُلى كهلاً وأخفضَ في الزّمانِ الاوّلِ
فالخمرُ تحكمُ في العقول مُسيئةً وتُداس اوّل عصرها بالأرجُلِ

وكتب الى صديق كان عزّاهُ في نكبةٍ (من البسيط):

لمَّا أتاني كتابٌ منك مبتسمٌ عن كلّ فضلٍ وجودٍ غير محدودِ
حكَتْ معانيهِ في أثناء أسطرهِ آثارَكَ البيضَ في احواليَ السُّودِ

ومن حسن وصفهِ قولهُ في النفس (من الكامل):

يا درَّةً بيضاء لاهوتيَّةً قد رُكِّبَتْ صَدَفاً من الناسوتِ
جَهِلَ الغُبارةُ قَدْرَها لشقائهم وتنافسوا في الدرّ والياقوتِ

ومن طريف قولهِ ما كتبهُ عن جارٍ انتقل عنهُ (من الوافر):

تناءت دارُهُ عنّي ولكنْ خيالُ جمالهِ في القلب ساكِنْ
اذا امتلأ الفؤادُ بهِ فماذا يضرُّ اذا خَلت منهُ المساكنْ

وكذلك قال في مفارقة الوطن وفائدة الاسفار (من الكامل):

لا تكترث لفراق اوطان الصِّبا فعسى تنالُ بغيرهنَّ سُعودا
فالدرُّ يُنظَم عند فقد بحارهِ بجميل أجياد الحسان عقودا

وقال يهجو مغنّياً (من مجزوء الكامل):

قد دهاني ما دهاني من ثقيلٍ في الاغاني
قلتُ اذ غنّى عراقاً ليتني في اصفهانِ

ومن ظريف اقوالهِ عن لسان قهوة الخمرة تهجو قهوة البنّ (من الطويل):

سمعتُ لسان الحال من قهوة الطّلا تقولُ هلمُّوا واسمعوا انصّ اخباري

فبأسمي تسمَّت قهوةُ البنّ في الملا ولكنها لم تحكِ بالفضل أخماري

فمن كذبها قد سوّد اللهُ وجهها وعذّبها بعد الاهانةِ بالنارِ

وقد تفنن ابن افرنجيَّة في شعرهِ فلهُ الموشّحات والزجليّات والبديعيّات . ومن اقوالهِ ما يُقرأ طردًا وعكسًا كقولهِ (من الكامل):

عدَلوا فما ظُلِمَتْ بهم دولٌ سَعِدوا فما زلّت بهم قدَمُ

بذلوا فما شَحَّت لهم شيَمٌ رشَدوا فما زالت لهم نِعَمُ

فتُقرأ معكوسة وتُصبح هجوًا بدلًا من المديح:

قَدَمٌ بهم زلّت فما سَعدوا دولٌ بهم ظُلمت فما عدلوا

نِعَمٌ لهم زالت فما رشدوا شِيَمٌ لهم شَحَّت فما بَذَلوا

ولهُ مناظرة في الشعر العامّي بين التبغ والقهوة اوّلها:

قصّة جرت ، بين التُّتن والقهوةْ ، وتفاخر الاثنانْ ، وزادا برهان

الى ان ختمها بتحكيم العرَق بينهما متفكهاً:

قال العرق نحن رفاقٌ جملَهْ في جَمْعنا نخدمُ اهل الكَيْفْ

انتَ بلاها ما يبان لك الذّه وانتِ بلاهُ ما تفعليهِ كلّه زَيْفْ

الطاعن بجنسهِ في المثَل قد قالوا في الحال هو طاعن بنفسهِ يا حَيْفْ

والصلحُ في الحالة رئيس الاحكام وانتما اثنان بحالة اخوانْ

فتصالح الاثنان وزالت الاحقادْ وتوافقا كأنَّ المقدَّر ما كانْ

وقد نشرنا لابن افرنجيَّة في المشرق (٢[١٨٩٩]: ٤٤٤_٤٤٥) دائرتين تتضمَّنان قصيدتين قافية وعينيَّة تأنَّق في تصويرهما بحبرَيْن اسود واحمر. وكل بيت يبتدئ من مركز الدائرة وينتهي اليهِ بعد استدارتهِ على شكل عجيب. فليراجعا هناك

وقد قال ابن افرنجيَّة يصف مجموعةً (من السريع):

مجموعُنا هذا لهُ رونقٌ كرونقِ اللؤلؤ في عِقْـدهِ
كادت مجاميعُ الورى عندهُ تُنْسى لديهِ من سنا مجـدهِ

ثمَّ يقول معتذرًا لِما يكون وقع فيهِ من الاغلاط (من مجزوء السريع):

كتبتُهُ مجتهـدًا وليس يخلو من غَلَطْ
فقُـلْ لمن يلومُني من ذا الذي ما ساء قطّ

وشفعهُ بما هو في معناهُ (من الكامل):

يا ناظرًا فيما عهدتُ لجمعـهِ عذرًا فانَّ اخـا الفضيلةِ يعـذرُ
علماً بانَّ المرء لو بلغ المَـدى في الفضل والعِرفـانِ فهو مقصِّر
فـاذا ظفرتَ بزلَّةٍ فافتحْ لهـا باب التجـاوزِ فالتجـاوزُ أجدَرُ
ومن المحال ان ترى احدًا حوى كُنْه الكمال وذا هو المتعـذّرُ
والنقصُ في نفسِ الطبيعةِ كامنٌ فبنو الطبيعةِ نقصهم لا يُنكرُ

خاتمة

. ينال هذا الكتاب من التاريخ الحقبة المشؤومة التي خيَّم فيها الجهل على البلاد الحزينة الناطقة بالضاد بعد انقيادها لزمام المماليك ومَنْ خَلَفهم من الحكَّام الجورة ارباب السيف الدامي واليراع المحطَّم

فيقع طرف القارئ فيها وقوعه على قفر خالٍ وليلٍ مظلم حالك لا يسمع فيه الّا انة المظلوم واستغاثة المضنى ولا يرى الّا لمعة السيف وشهبة النار الآكلة

على أنَّ صوت هؤلاء الشعراء في ذلك المنظر المريع ورنَّة اوتارهم الضعيفة تعيد الى الفؤاد بعد الرشد فتستأنس الى انشادهم وهم يسبِّحون تسبحة المؤمن ويترغون بمحاسن وجه البارئ العظيم . فنرى فيهم الجذوة النيرة التي لم تخمد حتى تحت مهب العواصف الى ان يحون الاوان ويقترب الصبح فينهض رجال ذوو عزم ونفس جيَّاشة مثل فرحات والصائغ وابرهيم الحكيم وانطون بيطار فيبدأون بأنغامهم الجديدة تسبحة حياة النهضة العصرية

فلهؤلاء الشعراء النائحين والمسبحين جميعاً كرَّس المرحوم الاب لويس شيخو الطيب الذكر كتابه هذا تخليداً لما سمعه منهم من روح الايمان والامل طيلة تلك الطريق الموحشة



فهرس القسم الرابع

من

كتاب شعراء النصرانية بعد الاسلام



